صاحبها ورئيس تحريرها

مدحة عكاش

MADHAT AKKACHE

الثقافة

مجلة ثقافية أدبية شهرية

دمشق ــ ص.ب (٢٥٧٠) هاتف ٣٦٢٩١

العدد الثاني عشر

آب

١٩٦٤

السنة الخامسة

بعد خمسة أعوام

بقلم

رئيس التحرير

في هذا العدد تختتم مجلة الثقافة عامها الخامس .

أجل خمسة أعوام انقضت بخيرها وشرها . الا أننا ــ وعلى الرغم مما حاولنا ان نبذل في سبيل رسالتها ــ مانزال نشعر أننا في أول الطريق ... الطريق الطويلة الشاقة ، تلك التي لا يقدر مشقتها الا من مارس مثل هذه الاعمال ، وتحمل أعباءها .

وقد كنا وما نزال نؤمن بأنا لم نبلغ الكمال بعد في ما نذرنا اليه أنفسنا ، ولذا فلا أحب الينا من نقد الناقدين ممن نذروا أنفسهم لخدمة الحرف وقدسيته ، رائدهم من وراء ذلك خدمة الادب في كل بلد عربي ، وممن لم تعصف الاحقاد في أهوائهم وأحكامهم . لهؤلاء فقط تفتح المجلة صدرها معتمدة على أدبهم وثقافتهم ونزاهتهم في نقدهم من مديح وتجريح ، راضية بما يقدمونه ، مطمئنة لنزيه مؤازرتهم .

وبعد ! فاذا كان لنا حق بأن نعد قراءنا فليس لنا الا أن نأخذ على أنفسنا عهدا بمضاعفة جهودنا لعلنا نصل الى بعض مانريد ... او كل مانريد .

مدحة عكاش

أسرار الأحلام

بقلم معالي الدكتور :
صبحي أبو غنيمة

منذ أمد طلع معالي الدكتور محمدصبحي أبو غنيمةعلى الناس بالجزء الاول من كتابه الفريد (نظرة في أعماق الانسان) وقد أحدث الكتاب ضجة كبرى في عالم الفكر لانه كان ثورة على فساد الاسس القديمة في الطب وذلك برأي كبار العاملين في هذا الحقل . وتفخر مجلةالثقافة اليوم اذ تقدم المحاضرة الاولى من الجزء الثاني لهذا الكتاب القيم والمعد للطبع وفيه يضع المؤلفالاسسالجديدة لتفسير الصحة والمرض ، مما لم يسبق أن تعرض أحد لهذا الموضوع من قبل .

سيداتي وسادتي

قبل ان ادخل الى هذه القاعة بقليل حادثني اثنان من رفاقكم ففهمت من حديثهما شغفهما بهذا البحث وظمأهما الى معرفة أسراره ! ولم أستغرب هذا من شابين مثقفين فالسعي وراء المجهول غريزة ثم أن بحث (الاحلام) نفسه طريف الى أبعد حد !

يقول (لمبروزو) : (ان أكرثيةالشعوب تؤمن بحقيقة الاحلام أكثر من أيمانها بوجود الله) وهذا صحيح فقد كانت تعتبر الاحلام كرسالة ألهية فيعمل كل شيء حسب ارادتها :

فرعون مصر يرى في منامه أن يعيد معبد الآله (هيرا بوليس) فاذا بالبناء والحركة تبدأ في اليوم الثاني وسرخس ملك الفرس يحلم بالحرب فيجرد جيوشه على اليونان ومثله هانيبال الذي غزا روما بعد حلم .. ان اسكندر الكبير الذي كان يحاصر(تيروس) مل من الحصار بعد حين وقرر الانسحاب في اليوم الثاني ولكنه رأى تلك الليلة في الحلم انه أمام مسرح وأن رقاصا يرقص ويمثل أمامه فأخبر بهذا حاشيته من المفسرين الذين لا يفارقونه فاذا بهم ينصحونه بالبقاء اذ أن الحلم الذي رآه كان يحمل بشرى ... فالرقاص في اليونانية يسمى (ساتيروس) ولكن (سا ــ تيروس) اذا لفظت مجزأة فمعناها أن تيروس هي لك وهكذا تقرر مصير شعب ومدينة بعد حلم والأمثلة كثيرة جداً ولكني أريحكم منها فأنكم تجدونها في كثير من الكتب والقصص ..ان انهماك المحدثين اليوم بالاحلام لا يقل عن ماكان بالامس ولكن السبب يختلف كثيرا :

ان الدراسات الحديثة قادتنا الى اكتشاف أمر هو على غاية من الخطورة ولم يعد يقبل الشك والجدل ، وذلك هو أننا نحلم باستمرار وان الحياة ليست أكثر من حلم طويل وأن القول المأثور (الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا ..) هو كلام مليء بالصدق والحقيقة !

نحن نحلم بلا انقطاع وحتى الآن وأنا أكلمكم وحتى وأنتم تصغون الي وانه لمن الصعب أن نجدالحدالفاصل بين النوم واليقظة والى هذه الحقيقة يشير الفيلسوف الصيني (تشو انغ سه) بكلمة رائعة هي هذه :

« أنا تشوانغ سه : حلمت بالامس أنني أصبحت فراشة .. فراشة ترفرف هنا وهناك ، لغايات وأسباب ، لا أعرف عنها كثيرا ولكني كنت أعرف فقط »

« أنني أتبع أهوائي كما تتبع الفراشة أهوائها فلا أشعر بما يشعر الناس واستيقظت .. وها أنا ذا كما كنت.. أنا نفسي ، غير أني لا أدري « هل كنت هناك الانسان الذي يحلم أنه فراشة أم أنني الآن الفراشة التي تحلم أنها انسان ! » (تشوا نغ سه) » .

ان حقائق من هذا القبيل مهدت السبيل لابحاث جديدة لم تكن معروفة من قبل وفتحت للعلماء آفاقا جديدة للكشف عن أسرار الحياةفي الانسان فازدادت معرفتهم بها زيادة جعلتهم يبصرون الاخطاء القديمة التي كانوا يتبعونها ليضعوا أسسا جديدة سليمة ..
واسمحوا لي أن آتيكم ـ على الهامش ـ بمثال صغير :

حتى زمن غير بعيد، كنا لانسمع بتفصيل أو أبحاث واسعة عن هذا الذي يسمونه (أحلام اليقظة) ولكنا الآن وبعد خمسين عاما فقط أصبحنا أمام مكتبة هائلة من الابحاث وفي صميم نظريات خطيرة ودراسات وأبحاث على غاية ما تكون من الاهمية وكل ذلك من مادة كانت حتى الامس مدعاة للهزؤ والسخرية اذما هي أحلام اليقظة ؟ انها صور لحوادث خيالية ولاشخاص وهميين وليس في كل ذلك منطق ولا حقائق ، وعلى سبيل المثال :

عندما مات فيصل الاول رحمه الله رثاه الشعراء ومنهم شاعرنا الكبير بشارة الخوري بقصيدة رائعة مطلعها :

(لبست بعدك السواد العواصم
واستقلت لك الدموع المآتم

وكان منها هذا البيت :

(هكذا مصرع النسور وساد
من جلال وقبة من طلاسم !)

والآن قولوا لي : أين هي (الوسادة المصنوعة من الجلال) و (والقبة التي تبنى بالطلاسم) ؟ انها غير موجودة الا في خيال الشاعر وفي أحلام يقظته ولكن مثل هذه (الاحلام) هي التي تحبب لنا الشعر وتجعلنا نبحث عنه .

وليس هذا فحسب ! ان العبقري الذي حدثنا في (الف ليلة وليلة) عن (صندوق العجائب) (وبساط الريح) و (العين السحرية) هو نفسه الذي مهد للراديو والتلفزيون والطيارة أن تكتشف وذلك قبل ألف وثلاثمائة عام ...
ان الكاتب الذي طار في قصته (بمنطاد زبلين) كان قد سبق الكونت زبلين بسنين في الحصول على شرف السبق !!

والموضوع ليس هنا فقط. فان تلك الصور الخيالية من الخرافات والقصص بات يعزى لها الكثير وباتت ميدانا لدراسات واسعة يطلق عليها بلا تردد اسم .. علم ! وأكبر شاهد على ذلك هي الاساطير .. والتي لا أساس لها البتة ولكنها اليوم تدرس في الجامعات كـ (علم اساطير اليونان) و (وعلم اساطير الرومان) و (... الكلتيين) و (... الغاليين) و (.. السلافيين) و (... الجرمان) .

هذه الاساطير نفسها ، لها ـ كما يبرهن على ذلك يونغ ومدرسته ـ بقايا وآثار فيدماغ كل واحدنا (وفي كل حلم لابد من أثر لها فلا يغيب عن عين الخبير أبدا)!!
وأنا استعرض امامكم صورة (جهنم) التي رآها القديس أنطونيوس في حلمه وهي صورة طبق الاصل

جهنم !



(كما وصفها القديس انطونيوس ورسمها الفنان بوش)

عن خرافات الاساطير ، هذه (الخرافات) وبقاياها هي التي يسميها اساتذة مدرسة زوريخ (الصور القديمة ••• archetypus) وهي التي يعزون اليها الكثير في السيطرة على أعمالنا اللاشعورية ويطلقون عليها لقب (العقل الاسطوري ••) أو •• الحاسة السادسة ! !

من فروع هذا البحث انبثق بحث جدبد هو (أحلام اليقظة عند الاطفال) وهو يملأ مكتبة واسعة تعج بالمؤلفين والمكتشفين والرواد :

ان العالم (سميث) يدرس ويحلل أحلام اليقظة عند الاطفال على ضوء ١٤٧٥ حلما جمعها بكثير من الصبر والجلد ومثله فعل (لوران) و (به نه دكت) و (دوده) و (جرين) وأصبح ثابتا (أن أحلام اليقظة في الطفل هي من الاشياء الطبيعية والضرورية لنموه) و (•• ان احلام الاطفال لها مغزاها الكبير !) و (•• يجب أن لا نستخف بهذا ! !) •

سيداتي وسادتي : كل هذه الحقائق التي توصل اليها العلم ، جديرة بأن تسترعي انتباه الجمع الذين يحرصون على ارواء ظمأهم من المعرفة وليس بمستغرب أن يقبل عليها كل طبيب وأديب ومثقف ! ولعل هذه المقدمة تكفي لندخل الى صميم الموضوع وسترون أنه مليء بالطرائف والاسرار :

قبل كل شيء لنلق على أنفسنا السؤال الآتي : ماهو الحلم ؟ !

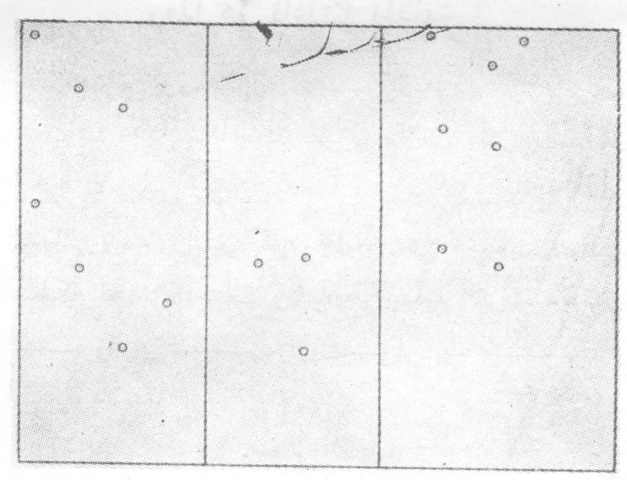
ان الجواب على هذا السؤال فد اعطى بعشرات (النظريات والآراء) فهو : (الطريق الى النفس •• فرويد) و (حارس للنوم •• فرويد) و (تتمة لعمل اليقظة •• دلبوف) و (وعملية افراز •• روبرت — بينز) و (القيام بعمل مستقل لا يمكن عمله في اليقظة •• شرنر) و (الطريق الى الشفاء •• بيه رره) وكثير غ يرذلك ولكنها كلها لا تشفي غليلا وعرضة للاخذ والرد ولعل التعريف الصحيح للحلم هو هذا : (الحلم — كل حلم — هو مسرحية يقوم بتمثيلها الدماغ على شاشة الرأس فيقوم فيها بدور المؤلف والمخرج والممثل والملقن معا •• أما المتفرج الوحيد فهو •• أنت أيها الحالم !) •

الفرق بين مسرحية الحلم وغيرها من المسرحيات ، هو أنها على الرغم مما يبدو فيها من عوج وابتعاد عن المنطق وسخف ، صادقة كل الصدق في كل حرف تقوله في دورها التمثيلي (وليس هناك أصدق لكم من أحلامكم !) واستمعوا الآن الى هذا الحلم (من سجلات الاستاذ بوس) على لسان احدى مريضاته :

« حلمت •• اني أعد مائدة الطعام للعائلة ونحن »
«خمسة أشخاص وقد انتهى وضع الاطباق•• ناديت»
« والدي واخوتي ولكن أحدا لم يجبني ولم أسمع »
الا صدى صوتي يرن في انحاء البيت مماجعلني أجفل »
« وأرتعش فصعدت درجات السلم الى الطابق الثاني »
« بسرعة لانظر فيما اذا كانوا في غرفهم فرأيت »
« شقيقتي جالستين على السرير ولكنهما •• جامدتان ! »
« ناديتهما فلم يجيبا ! فقمت أهزهما ولكن •• »
« ياللهول ! لقد رأيتهما •• أحجارا ! فابتعدت وأنا »
« أرتجف رعبا وأسرعت الى غرفة أمي ولم أكد ادخل »
« حتى رأيتها كالتمثال الحجري وعيناها كأنها من »
«زجاج فأسرعت وقد كدت أهوى هلعا الى غرفة أبي»
« وألقيت بنفسي عليه مطوقة اياه بذراعي وانا أضمه »
« برعب لا يوصف الى صدري •• وهنا كدت أفقد »
« صوابي اذ لم أكد ألمسه حتى رأيته أصبح بين »
« ذراعي •• كومة من تراب ! ! » •

ان هذا الحلم عاود المريضة أربع مرات متتاليات وبعد عشرة أيام من آخر حلم أصيبت بعارض •• وهي الآن نزيلة المستشفى العقلي وكأنها •• كومة من تراب!!»

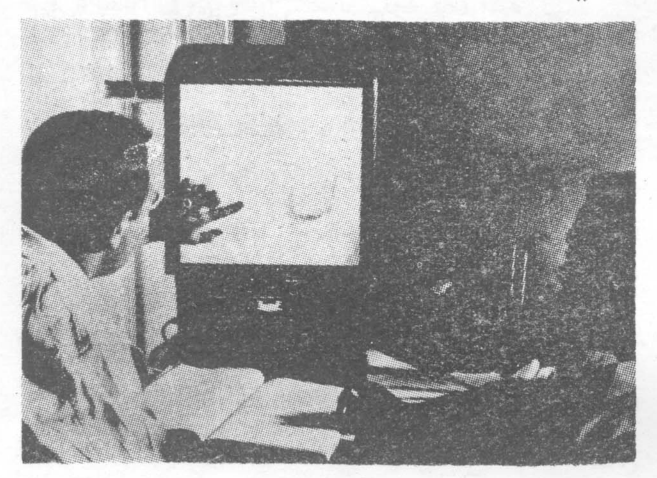
سيداتي وسادتي : قلت لكم ان الحلم في مسرحيته هذه صادق كل الصدق وأرجو أن لا يستغرب هذا فالحلم هو لغة الدماغ والالتجاء الى لغة الاعضاء في فهم المرض أمر تعرفونه جميعا وربما ما رستموه يوميا : كلكم تذهبون الى الطبيب وهو يطلب منكم (فحوصا) كفحص البول والدم والقلب والرئة والرأس وغيرها فتقدمونها له عن طيبة خاطر •• ان هذه الفحوص أصبحت متعددة وكثيرة وبعضها خطير وكل يوم يوجد الجديد منها : مثلا الفحص بامتصاص الفيتامين (B 12) وحمض الفحم (٥٨) ! ان نظرة واحدةالى الصورة تعطيك صورة عن المرض أو الصحة في الحال:



أمراض الكبد سرطان الدم الانسان السليم

فقر الدم استصال المعدة (بعد القرحة)

وهناك (فحص جديد) للسرطان عن طريق التقاط صدى الموجات الصوتية ذات الذبذبات فوق العالية وتحويلها الى صورة تحدد بها أمكنة الاورام الخبيثة كما في هذه الصورة •



ان كل هذه الفحوص لها قيمتها وأهميتها ولكن الفرق بينها وبين ماتعطيه الاحلام من انذاراتها هو أن الصدق يكون دوما في جانب انذار الاحلام وان تلك الفحوص بمجموعها لا يمكن ان تدانيه في الصحة والصدق ! !

أما الدليل فتأتينا به الحوادث :

قبل ايام اختطفت يد المنون من بيننا شابا يعدزهرة من زهرات المجتمع وهو في ربيع العمر وقد صمم على الزواج ولم يبق بينه وبين الاحتفال بالعرس الايومان•• هذا الشاب قام كالعادة قبل أيام الزفاف بجميع الفحوص •• وقال عمه أنه جاءه متهللا ليخبره بأن الفحوص•• كلها •• (برفكت) أي ممتازة وسليمة !•• ان هذا الشاب دخل السرير لينام ولكنه لم يفق من نومه ابدا ! !

سيداتي وسادتي : انني وقد مارست الطب ستة وثلاثين عاما ومر بي عدد كبير جدا من عشرات الالوف من المرضى أستطيع أن اذكر لكم عشرات الحوادث من هذا القبيل كما يستطيع ذلك كل طبيب مر علبه ما مر علينا من حوادث ! ! •• والاطباء اليوم يعرفون هذا ويعرف الكثير منهم السبب أيضا :

نحن نشخص الامراض على أساس فحص الاعضاء التي ذكرناها سابقا •• ونعالج الامراض على هذا الاساس أيضا فعندنا أدوية القلب والمعدة والكبد والدم والرئة والخ ••• اننا نمتلك من هذه الادوية ما عدده مائة وخمسون ألف عقار •• ولكن ليس في كل هذه العقارات ، عقار واحد يمكن أن يقال عنه أنه يشفي لوحده بالمعنى الصحيح •• ان كل ما قيل في هذا الصدد موجود في كتابي (نظرة في أعماق الانسان) فليرجع اليه من شاء !

نحن نقسم الامراض واسبابها الى خارجية وداخلية ولكن حتى الآن لا نعرف سبب الامراض العقلية ولا الاورام والاورام السرطانية بوجه خاص •

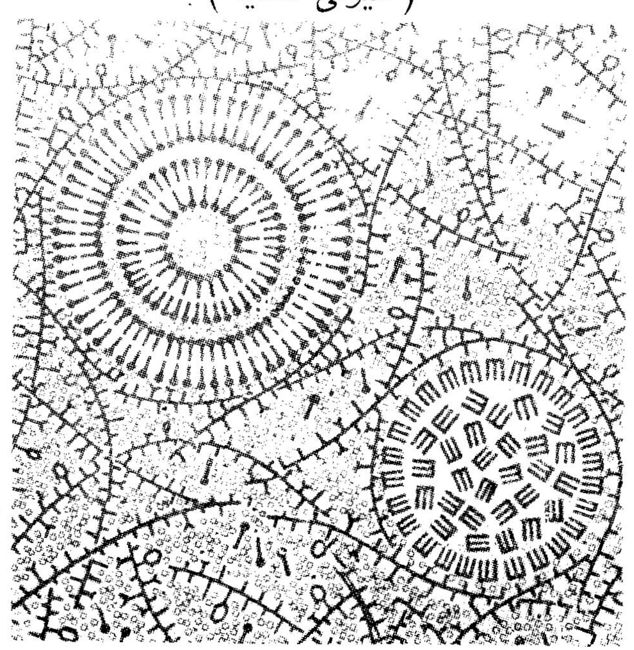
اننا نمشي في اسسنا المعاصرة على أسس وضعت قبل آلاف السنين ولا نزال نتمسك بها حتى الآن ، ففي عام ١٨٧٣ اكتشف في الاقصر على أقدم نصوص طبية كان (هرمس) جمعها في ستة كتب يبحث احدها في بناء الجسم وأجهزته وأثر الكبد في هضم الغذاء وعمل الصفراء والثاني في الامراض والثالث في الآلات الطبية والرابع في امراض العين والخامس في امراض النساء والسادس هو (كتاب العنبر المقدس) ويعد الاساس في الطب !

سيداتي وسادتي : ان كتبنا الجامعية لا تختلف من حيث الاساس عن هذه الكتب — مع فارق الزمن والمكتشفات الحديثة طبعا — والتشريح هو المسيطر اليوم كما كان قبل آلاف الاعوام ! ! •• هناك قافلة كبرى من العلماء وعلى رأسها أبطال مشهورون رفعوا لواء المعارضة وهي تزداد يوما بعد يوم وفيها أمثال (برجمان وزاور بروخ وبلويلر وكراوس) وكثير غيرهم •• ويبدو أننا نحن معشر الاطباء لا نسلم بالقديم الذي ربينا عليه بسهولة والشواهد على هذا كثيرة ولعل أطرفها هو حادث فاسيليوس البلجيكي وجالينوس فقد اكتشف الاول أخطاء الثاني وكتب عنها فقامت عليه القيامة ان جالينوس ولد بعد الميلاد بسنوات وعاش فاسيليوس بعده بأربعمائة عام ولكن شهرة جالينوس كانت مكتسحة دنيا الطب اذ ذاك ويضرب به المثل ومع ان فاسيليوس استطاع ان يبرهن على صحة أقواله ومع أن زملاءه قنعوا بخطأ (معلمهم) الا أن جوابهم كان هكذا (ان جالينوس لا يخطيء ولكن •• الجسم البشري قد تغير) !! وعلى الرغم من هذا فأنا أومن ايمانا جازما بأن الوقت قريب الذي سيعترف فيه الجميع بأن (جالينوس ، كبشر ، يخطيء ويصيب وان الجسم البشري من حيث الاساس لم ولن يتغير ، وان أسسا جديدة يجب ان تسود بدلا عن تلك الاسس المهترئة والتي لم تعد صالحة) ! !

ان الجسم يعمل دوماً ككل لا يتجزأ
وهذا هو قاعدتنا الجديدة !

سيداتي وسادتي : الجسم أشبه بمملكة مترامية الاطراف عدد سكانها يفوق بملايين الملايين سكان الكرة الارضية وتدار كلها من المركز (الذي هو الدماغ) •• في دار كل مخلوق حي من سكان هذه المملكة نجد تجهيزات رائعة هي هذه التي ترونها في الصورة ونسميها (هيولى الخلية أو البروتوبلاسما) •

(هيولى الخلية)



ان كل مايثير الجسم ـ وكل مايثير الجسم نسميه إثارة ـ يظهر أثره في الحال في تلك التجهيزات الموجودة في دار كل مخلوق حي (وهذا المخلوق الحي نسميه الخلية) فنجد تحولا في الشوارد الكهربائية الموجودة فيها وتبدلا في حوامضها وقلوياتها ومعادنها وتغيرا في مياهها والخ ..

ان كل ما يحدث في الخلية وهيولاها تظهر صورته في الدماغ ولكن .. بالمسرحية التي رأينا نموذجا منها :

ان البرهان على ذلك سهل ويستطيع كل واحد منكم القيام به على نفسه أو على غيره .. وها أنا استعرض امامكم بعض التجارب التي قام بها (مورلي فولت) وفي مسامراتنا القادمة سنرى الكثير منها :

١ ـ بعد أن نام أنشق (ماء كولونيا) فرأى نفسه في القاهرة ورأى كأنه يدخل الى مخزن تباع فيه الروائح العطريه ومنها روائح (جان ماريا فارينا) ..

٢ ـ قرص في رقبته فحلم أنه يرى طبيبه الذي كان يطببه وهو طفل ورأى نفسه مريضا وأن طبيبه يضع له لصقة خردل .

٣ ـ وضعت نقطة ماء على جبينه فرأى كأنه في ايطاليا وهو .. يتصبب عرقا .. ثم يجلس ويشرب نبيذ (أورفيه تو) المعروف !.. هذه كلها اثارات عضوية من مواد عضوية !

وهاكم إثارة نفسية: امرأة تحب رجلا اسمه (أوتو) رأته في جنازة فحلمت تلك الليلة الحلم التالي :

٤ ـ رأت نفسها تسير ورا ءجنازة ابن شقيقتها ورأت بين الجموع (اوتو) يسير في الجنازة ايضا .

سيداتي وسادتي :

بعد استعراض هذه التجارب نستطيع أن نخرج بنتائج أراها على جانب كبير من الاهمية فاسمحوا لي بعرضها عليكم :

١ ـ رأيتم ان الاثارة مهما كانت صغيرة وتافهة فأنها تحدث في الدماغ حلما بشكل مسرحية ولما كنا عرضة للاثارة في كل لحظة من لحظات حياتنا اليومية فان معنى هذا أننا نحلم باستمرار وبدون انقطاع ولا عبرة في اننا لا نرى كل أحلامنا اذ أن الحلم يعمل عمله باستمرار ـ وهذا نعرفه من مخطط الدماغ ـ كما أنه يعمل ابان النوم العميق ـ وهذا برهن عليه هلباخ ـ ويعمل حتى أثناء الصرعة ـ كما برهن على ذلك (شيلدر) في رجل وقع في الصرعة .

٢ ـ ان كل اثارة هي وحدة مستقلة لها ابتداء ولها انتهاء وقد رأينا في الفتاة صورا أربعة من أحلامها وقد تكون رأت غيرها من قبل ولكن الاخيرة هي الهامة وفيها الانذار .. بالفناء وفي مسامرة قادمة سأقدم لكم صورة لمهندس شاب مريض امتدت مسرحيات أحلامه طيلة ثلاثة اعوام وبلغت (٨٢٣ مسرحية وفي الاخيرة منها كان (الانذار) واضحا بالشفاء وقد شفي فعلا !!

٣ ـ ان الحياة هي معركة بين الاثارات والخلية من جهة وبين الدماغ من جهة أخرى ونحن في أسسنا القديمة كنا نهرع لنزود الخلية بالعقاقير وقد رأينا كيف فشلنا في هذا ـ ولو قام من في القبور لكان أكثرنا في السجون لا لاننا قصرنا في اعطاء الدواء ، بل لانا أعطينا منه أكثر مما يجب ـ فالدماغ يمتلك من الامكانيات في داخل الجسم ومن الطاقات ما يستطيع أن يفعل بها العجائب وهو بهذا محيط بكل ما يجري في الجسم ومحيط بكل ما في الجسم من امكانيات .. انه يقبل الاثارة ككل لايتجزأ ويعالجها ككل لا يتجزأ .

٤ ـ ان الاحلام هي أشبه بنافذة يطل منها الحالم فيشرف على ما يجري في داخله وليست مهمة الطبيب هنا في أن يكون (مفسر منامات) بل مديرا وقائدا حكيما للمعركة متبعا في ذلك قوانين وقواعد ثابتة هي التي ستكشف لنا في (أسرار الاحلام) !

الفراشة الفضية

قصة للكاتبة الأمريكية بيرل باك

★ تعريب : عيسى الناعوري

شرع الرجل يتكلم :

سأحدثك عن أمي ... :

واغمضت عيني في الظلمة الحارة من تلك الليلة من ليالي هونغ كونغ . لقد أرسلت الى هناك في مهمة، وكان عملي ان أستمع الى حكايات الرجال والنساء الهاربين من حدود الارض الصينية . وقد أبى هذا الرجل ان يدخل الى غرفتي قبل ان يسود الظلام . لم يكن يريد ان أرى وجهه ، بل اسمع صوته : كلماته فقط ، حين راح يتحدث .

ولم تكن الفاظه كلمات انسان محكية ، ولا كان صوته صوت انسان ، بل كانت هذه كلها ادوات فقط ، تجلو لي في خشونة النور الجديد من هذا النهار مشهدا ما ازال اذكره جيدا . وقد عاد الماضي حيا الى ذهني عبر هذه الادوات : قرية عند نهر يانغ تسي ؛ وكم من مرة رأيت مثل هذه القرى ، وكل منها شبه عنقود من البيوت ، حيطانها من الطوب ، وسقوفها من الآجر ، في اواسط الصين . وبين البيوت الفقيرة فتحة باب في جدران مجمع داخلي . وفي وسط المجمع يقوم فناء منزل صاحب البيت ؛ وهو ثري بالنسبة الى القرية ، يملك نحوا من عشرين فدانا من الارض ، وربما كان هذا يساوي عشرين ضعفا مما يملكه أي فرد آخر في القرية التي هو سيدها . وكان هذا السيد والده ، ولم يكن ثراؤه مقتصرا على الارض فحسب ، بل كان لديه ايضا محظية ، او ربما اكثر من محظية ، ولكن على الاقل محظية واحدة .

وقال الصوت في الظلام : « تلك كانت امي » .

آه ! هنا القصة . لقد كانت امه . وفي الازمنة القديمة كانت الصلة بين الام والابن قوية جدا عند الصينيين ، فالجنود الصغار ، والاولاد الذين يؤخذون من شوارع القرية القذرة ويجبرون على الخدمة العسكرية ، كانوا يصرخون مستغيثين بامهاتهم : «وو ته ما ! وو ته ما !» ، وكذلك حين كانوا يسقطون قتلى في معارك الثورة كانوا يصرخون بملء حناجرهم منادين اماتهم . وفي احدى المرات حينما تظاهر الطلاب ضد القائمين بالحرب الاهلية واطلق عليهم الجنود الرصاص ، سمعتهم يستغيثون بامهاتهم .

وقال الصوت في الظلام : « كان لي اخ ، وقد مات وعمره خمس سنوات ، قبل ان اولد . وكانت امي تحبه اكثر مني . انني اعرف ذلك لانها حين كانت ترى ولدا ، ذكرا ، في مثل عمره كانت تلاطفه لكي يأتي اليها، وتطعمه الحلوى. وانا كنت ابن شيخوختها: كان عمرها اكثر من اربعين عاما حينما وضعتني ، وكان مصيبة لها ان تكون في تلك السن وما تزال تلد الابناء. ومع ذلك فقد كافحت لاجلي ، وجعلت والدي يعاملني بالحسنى كما يعامل ابناء زوجته . لم تكن تدعه ينسى انني ابنه مهما يكن شأنها بالنسبة اليه . انني

اذكر انها كانت طيبة جدا معي ، وانا مدين لها بذلك كل حياتي » •

صمت الصوت صمتا طويلا كما بدا لي ، مع انه في الحقيقة ربما لم يزد على دقيقة واحدة ، ثم عاد يقول : « ثم جاءت الجماعة الاخرى ، واتهم والدي بالاقطاعية ، وكان متهموه هم مستأجري اراضيه انفسهم • انهم لم ينسوا كل ما احسن به اليهم ، وكيف كان يسامحهم بحصته من الغلة في سني المحل ، ويفض خلافاتهم بالحسنى ، ولكن حين استولى اعضاء الحزب على قريتي كانت مهمتهم ان يعلموا الناس الحقد ، فاذا لم يطالب مستأجرو الاراضي بقتل الملاكين فسيحل العقاب بهم ايضا • وهكذا كان يجب ان يموت جميع الملاكين : الاخيار منهم والاشرار على السواء ، لانه لا بد من ان يسود النظام الجديد ، كما قالوا لنا • ولقد علق ابي من يديه على شجرة التين في فناء منزلنا الرئيسي ، وسلخوا جلده عن عظامه حتى مات ، وقد ارغمونا نحن اسرته على مشاهدة ذلك • ثم فرقونا بعضا عن بعض ، فتشتت اخوتي الذين من زوجة أبي وعائلاتهم ، ونقلنا انا وزوجتي وامي الى بيت صغير ، جدرانه من الطين ، مؤلف من غرفة واحدة كانت في الاصل مخصصة لاقامة بوابنا • وعهد الي بعمل حسابات التعاونية لانني كنت على حظ من الثقافة ــ وكانوا يدعونها (التعاونيات) في بادىء الامر حتى جاءت التنظيمات العمومية • وكان علي كذلك ان اعمل كذلك عدة ساعات في حفر الارض عند شاطىء النهر في قواعد الاعمدة التي كان سيقام عليها الجسر الكبير • اتذكرين المدن التي كانت متقابلة في وو نان ؟ »

فقلت : « اذكر ذلك • حتى في تلك الايام كان يراود الناس حلم اقامة جسر يربط بين تلك المدن ، ولكنه ظل حلما فقط • ان النهر هناك عريض وسريع»

فقال الصوت مؤيدا : « انه عريض وسريع حقا ، وتربة الشاطىء صلصالية وفي الفصول الجافة تصبح صلبة كالصخر انني لم اعتد مثل هذا العمل طول حياتي • وكانت زوجتي تعمل معي ، ولم تكن هي ايضا قد اعتادت مثل هذا العمل من قبل • ولهذا كنا نعود في الليل خائري القوى فما نكاد نستطيع ان نتحدث معا الا نادرا • وكانت امي تقضي النهار كله وحيدة في المنزل • انها لم تستطع ان تدرك شيئا مما حدث ، وبعد ان رأت والدي يموت لم تعد كما كانت• لقد اصبح عقلها عكرا كالطين ، كمن يلوث مستنقعا بالوحل » •

فقلت : « انا افهم ذلك » • وكانت الالفاظ التي قالها الصوت هي : « هوون ، تو هوون لياو » ــ أي ذاكرة مضطربة ، وتفكير مرتبك ــ

ومضى الصوت هادئا لطيفا متألما : « كانت مشكلتنا هي الطعام ، فلم نكن نجد منه الكفاية ، ولما كانت أمي لا تستطيع العمل لذلك لم تنل حصة خاصة من الطعام ، فكان علي وعلى زوجتي أن نقتسم طعامنا معها ، ولم يكن ذلك كافيا ، فكنا لذلك نعاني قسوة الجوع دائما • ولم تكن أمي تدرك لماذا كانت تجوع ، وكانت تقول لنا : « أليس في وسعكم أن تشتروا لي قطعة صغيرة من لحم الخنزير ؟ » •لقد كانت معتادة على الطعام الجيد : الخنزير والسمك كل يوم ، وما تشاء من الارز • أما الآن فنحن لا نجد مثل هذا الطعام ، ولحم الخنزير لم نكن نحصل عليه الا مرة واحدة في الشهر ، وما ننال الا قطعة صغيرة جدا ، فكنا نعطيها حصتنا هذه ، ولكنها كانت تظل جائعة ، وتحسب أن اللوم في ذلك علينا ، ولم يكن في وسعنا أن نجعلها تدرك أنه ليس في استطاعتنا أن نقدم لها غير ما كانوا يعطوننا اياه • وسألت مرة : « لماذا لا نشتري لنا خنزيرا صغيرا ؟ اننا نستطيع أن نربيه ثم

نأكله حينما يسمن » • لقد كان هذا ميسورا في الايام الماضية • »

فقلت : ــ « أنا أعلم أن كل فلاح لديه خنزيره في تلك الايام ، ودجاجاته ، وربما كان لديه جاموس أو ثور كذلك » •

فقال الصوت : ــ « كل هذه أخذ تمنا • اننا نقتسم زادنا ، كما تعلمين ، ولكن معنى هذا أننا لا نجد شيئا •ولم تكن أجورنا تدفع لنا كاملة ، بل كان قسم منها يؤخر ، ويقولون لنا انهم يحتفظون به أمانة لنا ، ولكننا لا ندري أين يحفظ • حتى الفلاحون ، مستأجرو أراضينا القدامى ، الذين كانوا يأملون في الحصول على الشيء الكثير بعد قتل الملاكين ، لم ينالوا شيئا ، فقد استولى الشيوعيون على القليل الذي كانوا يملكونه ولم يعطوهم شيئا في مقابله » •

وانقطع الصوت بغتة للسعال ، ثم تابع ــ : « أنت تدركين أنني لست شاكيا » •

فقلت ــ « انني أفهم ذلك » •

ومضى الصوت يقول ــ « وما نفع الشكوى ؟ ان كل ما نستطيعه هو أن ننحني كما تنحني القصبة عندما تكون الريح شديدة • وكل ما في وسعنا هو أن ننتظر أن تموت الريح لكي نعود فننتصب من جديد »

فقلت ــ « ستموت الريح حتما ، فاستمر في سرد حكايتك ، فلست أريد أن يقبضوا عليك هنا » •

فقال الصوت ــ « وجاء وقت جُرّدنا فيه حتى من المنزل » •

وعادت الوقفة الطويلة مرة أخرى ، ولما تكلم الصوت كان أشد انخفاضا وفيه رنة حزن ــ : «دعيني أكن أمينا • لو لم يأخذوا منا المنزل لما عرفت ماذا كان يمكنني أن أفعل • كان علي أن أكون شديد الحذر • لقد كنت موضع شك لانني ابن ملاك ، وقد درّبت الشيوعية أبناء الفلاحين ومستأجري الاراضي ، وعهدت اليهم بالسلطة ، فالشيوعية هي كل ما يعرفونه ، ولم يتعلموا شيئا سواها • ولست ألومهم على هذا فهم أيضا لا يملكون من أمرهم شيئا ، غير أنني لو أخطأت خطأ واحدا لما توانوا عن قتلي وقتل زوجتي وأمي معي • فكان علي أن أفكر ليلا ونهارا لئلا أقع في أي خطأ • وكانت أمي ، نتيجة لعدم ادراكها ، تعرضني للخطر مرارا • فحين كان يجيء أحد الضباط في غيابنا ليتجسس علينا كانت أمي تستقبله وتعتبره ضيفا ، كما كانت تفعل في الازمنة السابقة ، وتقدم له الشاي من أوراق الشاي القليلة التي كنا ننالها ، وقد تضيف شيئا من الماء الى القليل من الارز الذي تكون زوجتي قد أعدته لوجبتنا اليومية الوحيدة ، وتملأ منه طاسه تقدمها للضيف • ولهذا كنت اذ ذاك متهما باخفاء أشياء مدخرة • وكان القنوط مستونيا علي وعلى زوجتي • ومن المحتمل ، لو أن هذا الحال قد استمر ، أن ننسى أنفسنا ونعجل بموت الوالدة ، لا بدافع القسوة وانما لكي ننقذ أنفسنا جميعا • كان يمكن أن نفعل هذا كما فعله آخرون •

فقلت ــ « انني أستطيع أن أدرك جيدا كيف يمكن أن يحدث ذلك • غير أن مثل هذا كان يستحيل وقوعه في الزمن الماضي ، لان الابن الذي يقدم على عمل كهذا كان يمكن أن يعتبره القرويون وحشا فيرجمونه بالحجارة حتى الموت » •

فسأل الصوت ــ « أكان هناك زمن كهذا ؟ لقد نسيته ، كلنا نسيناه ، اليوم لدينا الشيوعية • لقد تركونا نعيش في المنزل الصغير الى أن أقيمت البيوت الشعبية الجديدة ، غير أنهم جردونا من أدوات المطبخ ، وأرغمونا على أن نأكل في قاعة الطعام المركزية ، وأخذوا زوجتي لتكون احدى ست طاهيات في المطابخ الشعبية • وأما أنا فأصبح عملي أشق من

قبل : في المكتب صباح كل يوم ، وفي حفر الارض بعد الظهر ، وفي الليل علينا أن نحضر اجتماعات شعبية حتى الساعة الحادية عشرة • غير أنني أتكلم عن الطعام فقط • ان لدينا بطاقات للوجبات أنا وزوجتي ، أما أمي فلم تنل بطاقة لانها كانت عاجزة عن العمل • فذهبت الى القائد ، وهو شاب في العشرين من عمره ، وابن حلاق قريتنا ، وكان قد انضم الى الحزب فأصبحت حياتنا في يده الآن • وجميع القادة شبان ومن عائلات الفلاحين ، وهم يتجاوزون الحدود في غيرتهم على محاولة ارضاء رؤسائهم الذين يخشونهم • فنحن جميعا لا بد لنا أن نخشى أحدا ما • وقال لي القائد : « لا بد لأمك من عمل » • فأخبرته أن عقلها عكر كالطين ، فقال ــ حتى الانسان الذي يكون كذلك يمكن أن يكون ذا نفع ، فهي تستطيع أن تعمل في الحضانة حيث يُرعى الاطفال • وهكذا أخذت والدتي الى هناك ، وبهذه الطريقة استطعت أن أحصل لها على بطاقة طعام ، فتحسنت حالتنا قليلا من حيث الطعام ، ولان زوجتي كانت احدى الطاهيات كانت تستطيع أن تختلس لقمة من هنا وأخرى من هناك كما يفعل سائر الطهاة ، وتستطيع كذلك أن تلف لي شيئا من الارز في ورقة لوتس وتخفيه في جيبها •

وكان يمكن أن تكون الامور حسنة الى حد ما مثل زمننا هذا ، لولا أن الحضانة كانت في منزلنا الكبير القديم ، الذي عاشت فيه حياتها كامرأة • ولكن عقلها كان من الاعتكار بحيث لم تنتبه الى هذا ، ولكنها مع ذلك ، ببقية من غريزة ، كانت تتذكر طريقها في أرجاء ذلك البيت • في الواقع أن البيت يبدو مختلفا جدا الآن ، فقد قطعت الاشجار ، وأتلفت الحدائق • لقد استعمل البيت في أغراض عديدة : ففي أول الامر اتخذ مقرا لرئاسة الحزب ، وبعد ذلك أصبح مصنعا للسلال ، ثم ثكنة للجنود • أما الآن ، بعد أن أصبح مركزا للحضانة ، فمن العسير أن يتذكر المرء أنه كان مريحا ، وجميلا أيضا في شكله القروي • ولعلك رأيت بيوتا بهذا الشكل » •

فقلت ــ « مرارا عديدة ، وهي بيوت جميلة جدا بشكلها الخاص • انها تنتمي الى الارض التي تقوم عليها ، وقد وضعت شكلها أجيال متعاقبة من الاسرة عينها » •

فترجرج الصوت رجرجة خفيفة وهو يقول ــ « كذلك كان الامر مع بيتنا • لقد قلت ان أمي لم تكن تتذكر ، ولكنها لم تكن ناسية كذلك • لقد جعلها عقلها المسكين تعتقد أنها قد أصبحت أحقر رقيقة في هذا المنزل المملوء بالاطفال ، وتظن بشكل ما أن هؤلاء هم أطفال أسرتنا العديدون • وراحت تتبع المديرة من غرفة الى غرفة ، وتخبرها أنها في وقت ما كانت سيدة هذا المنزل الكبير ، فما يجوز الآن أن تصبح خادمة فيه ، بل يجب احترامها ، والسماح لها بأن تجلس على كرسي بجانب الباب تستمتع بنور الشمس ، وأن يقدم لها الاخرون الشاي •

وكانت المديرة شابة ، وهي نفسها ابنة أحد الفلاحين ، وكانت قليلة الصبر ، كثيرة الخوف ، لا لأن والدتي كانت من طبقة الملاكين فحسب ، بل لانها كانت تخشى العقاب كذلك • انها ستنال عقابا صارما اذا لم تقم العجوز بعملها جيدا • وكان يثير غضبها تعيين عجوز بليدة حمقاء كوالدتي لمساعدتها • وليس في وسعي أن أقول أنها كانت ظالمة ، وانما كانت قليلة الصبر كثيرة الخوف فقط • وجميع الشبان والشابات هم كذلك الآن ، وهم مرغمون على السرعة ، غير أن كل ما يعملونه يكون على حساب الشعب » •

وعادت الاستراحة الطويلة مرة أخرى ، فقلت ــ « يا صديقي ، ان الوقت متأخر جدا » • فقال الصوت حالا ــ « برغم ذلك يمكن أن تسير الامور طويلا ،

لولا أن جيء يوما الى مركز الحضانة بولد عمره خمس سنوات ، أو نحو ذاك ، وهو يبكي • لقد كان هزيلا مريضا ، وحالما رأته أمي عاد ذهنها الى ابنها الذي مات طفلا • فأحبت الطفل ، وكانت هذه جريمتها الكبرى • لم تكن تستطيع أن تخفي حبها ، وهذا كان الخطر الاكبر عليها • ان الحب محرم علينا • لقد علمونا أن الحب هو ضعف بورجوازي ، وأنه يدمر كل أعمال مراكز الحضانة ، لان الاطفال يجب أن ينموا على التفكير في الجماعة فقط لا في أي فرد من الافراد، ولا حتى في أنفسهم • ومع الزمن يتعلم الاطفال الذين يقضون في مركز الحضانة نحو أربع سنوات ما يدعى بالحياة الجماعية • انهم يتعلمون هذا بسهولة ، غير أن الصغار يظلون مع ذلك يستغيثون بأمهاتهم في الليل ، وهذه مشكلة لم يتوصلوا بعد الى حلها • اذا بكى طفل أكبر قليلا فانهم يستطيعون معاقبته • وكما هو الواقع ليس هناك حل آخر حتى الآن غير العمل ، فالاطفال الذين تبلغ أعمارهم ثلاث سنوات ينزعون من الارض الاعشاب الخبيثة ، والاكبر قليلا يحملون الحجارة • وهم يتلقنون الاغاني التي تعلمهم كيف يفكرون ، واذا عصى أحدهم الامر ضاعفوا له العمل•

« وكان الطفل الذي أحبته أمي من العصاة ، طبعا ، فلم يكن يعمل شيئا ، ولا كان يكف عن البكاء• وقد حاولت أمي أن تساعده على حمل الحجارة ، ولكن هذا كان ممنوعا ، ولذلك هددوها بالابعاد ، فخافت من ذلك لانها الآن تحب الطفل حبا شديدا ، فصارت تبتعد عنه في أثناء النهار ، ولكنها في الليل كانت تتسلل اليه في الظلام وتأخذه بين ذراعيها ، وتمضي به الى زاوية في تخشيبة الوقود ، وتظل به هناك حتى ينام • وكان ذلك بطبيعة الحال ، عملا سيئا بالنسبة اليه ، فعلى الرغم من أنها كانت تشجعه وتجعله سعيدا ، الا أنها عودته الضعف ، فصار يحاول أكثر من قبل أن لا يعمل شيئا ، وبذلك وقعت هي ، أمي ، في حلم من الارتباك • لقد تخيلت أنها عادت محظية مرة أخرى ، ومعها ابنها ، وان جميع سكان المنزل يكرهونها معا ، فلم يعد لها صديق هناك ، أي صديق •

« وفي أحد الايام كانت تكنس أرض بيت الوقود ، وكان هذا جزءا من عملها ، وصفا عقلها الغائم لحظة ، فتذكرت أنها حين كانت محظية كانت قد أهديت اليها بعض الحلي ، وفي ساعة خوف إبّان احدى حوادث الهياج العام عمدت بسرعة الى إخفائها في هذا الكوخ خلف طوبة في الجدار ، ثم نسيتها • وكمن يسير في نومه سارت نحو ذلك المكان فوجدت الحلي كما كانت قد تركتها ، ولكنها مغطاة بالغبار • كان هناك ثلاث قطع • لست أدري ماذا كانت القطعتان الاخريان ، ولعلهما كانتا قليلتي القيمة والا لعلمت ماذا كانتا ، أما القطعة الثالثة فقد كانت ثمينة • لقد كانت فراشة من الفضة المخرمة مرصعة بجواهر صغيرة جدا • وكانت صناعتها دقيقة جدا • لقد رأيتها بعيني حينما قدمت الى المحكمة • لقد أخذت تلك القطعة وأخفتها في صدرها • وقد قيل هذا كله في المحكمة •

« وحدث في اليوم التالي أن الصبي قد جرح في يده جرحا بليغا • لقد رأيت هذا أيضا في المحكمة• كان الجرح مستطيلا في راحة يده ، وكانوا قد سلموه أداة حادة لقطع النباتات الخبيثة ، وكانت الارض صلبة كالحديد لعدم نزول المطر عدة أسابيع متتالية ، وحين شد على يد الاداة زلقت من يده • ونقلوه الى العيادة ، طبعا ، وصبوا في الجرح مطهرا سيئا • ان هناك كثيرا من الاطفال المرضى ، وهم كثيرون دائما ، والمعنيون بهم عجلون وكثيرو العمل دائما ، وليس فيهم من يملك بعض الوقت لتسليته • فتسللت أمي

اليه ، وخرجب به خلسة دون أن يفطن اليها أحد بين أولئك الاطفال العديدين • لقد قادته الى تخشيبة الوقود ، وهناك ، خلف حزم القصب أرته الفراشة الفضية لكي تسليه ، وهمست تقول له — « أنظر ما أجملها ! انها فراشتك ، وسأحتفظ لك بها فلا يستطيع أحد أن يأخذها منك ، ولكنها لك أنت وستظل تنظر اليها كل ليلة • خذ، امسكها بيدك »•

« لم يكن الطفل قد رأى من قبل شيئا جميلا • فانقطع عن البكاء وأمسك بالفراشة • ونظر اليها وابتسم • هذا ما قالته أمي بكل بساطة أمام المحكمة• وقد دهشنا لانها تذكرت كل هذا جيدا • كانا كل ليلة يأخذان الفراشة وينظران اليها • لقد أوصته ، طبعا ، أن لا يقول لاحد شيئا عنها ، ولكنه كان طفلا ، فكيف لا يبوح بذلك لطفل آخر ؟ وهكذا اكتشفت الفراشة • والواقع أن الطفل أراها سرًا لطفل آخر ، وهذا مضى فأخبر المديرة • والذين ينقلون أنباء كهذه عن أشياء ثمينة مخفية عمدا يكافأون بشيء من السكر• واستدعيت السلطات ، وأرغم الطفل على أن يقول الحقيقة ، ولاجل الحقيقة ضربوه ضربا مبرحا • كانت جريمته أنه اشتهى شيئا لا يملك مثله الاخرون ولا يستطيعون أن يحصلوا عليه ، وبذلك أصبح خائنا • ولم يكن حينئذ قد أتم السادسة من عمره •

« لقد أمسكت السلطات الآن بوالدتي ، فطلبوا منها أن تقول الحقيقة ، فروتها لهم بكل بساطة ،ولكن لم يصدقها أحد • قبل خمس سنوات كان مثل هذه الخيانة يستوجب قتلها ، أما الآن فقد حكموا فقط بالتشهير بخيانتها في الاجتماع الشعبي المقبل • ولكن التشهير نفسه كان أمرا لا يطاق » •

وانقطع الصوت ، وسمع صوت نشيج مكتوم ، فانتظرت • وهل كان هناك ما يمكن أن يقال ؟ ثم عاد الصوت يقول من جديد : —

« في يوم الاجتماع أخفيت نفسي بين الجمهور ، ورحت أنتظر • لقد كنت أعلم بما سيحدث ، لانني رأيت مثله من قبل مرارا ، غير أن هذه كانت أمي العجوز• لقد قادوها خارج الغرفة الداخلية، وأوقفوها امامنا ، وكانت يداها مربوطتين خلفها • وخرج القائد يعلن جريمتها بصوت عال ، وطلب الينا نحن الواقفين على مقربة منها بأن نصرخ في وجهها كذلك، وأن نتهمها،ونهز قبضاتنا في وجهها وتتوعدها•ويجب أن يستمر كل هذا الى أن نطالب أخيرا بحياتها •وأنا، أنا كان علي أن أصرخ أكثر من الجميع ، فلقد كان الجميع يراقبونني ليروا ان كان في صوتي ما ينبيء عن أي حب نحو امي • وكان علي أن أزداد صراخاً أكثر من الجميع ، أما هي فظلت تبتسم طوال الوقت ، وأظن أنها لم تدرك شيئا من كل هذا ، فكانت تدير رأسها هنا وهناك ضاحكة دون ادراك • ولم ترني ، فقد كنت أبتعد عنها قدر استطاعتي •

« وأسوأ ما في الامر أنها حين أرغمت ، كسائر من يشهر بهم ، على النزول عن المنصة والسير نحو الجمهور ويداها مربوطتان خلفها ، فراحوا يصفعونها على خديها ، ويضربونها على كتفيها ، فوقعت على الارض لانها كانت نحيلة جدا،وفي صباها كانت قدماها مربوطتين فلم تكن تستطيع أن تسير جيدا حتى حين كانت قوية • وهي الآن لا قوة لديها ، وحينما وقعت كان لا بد من ركلها بالارجل • وكانت عيون الجميع علي لمراقبتي ، وكنت خائفا ، فتقدمت لافعل ما يجب أن أفعله • وفي تلك اللحظة نظرت الى فوق، فرأتني ، وعرفتني • وحين رأيت أنها قدعرفتني حاولت أن أنظر اليها غاضبا ، فدهشت هي لحظة، ثم ضحكت لقد أدركت ••• »

وتحشرج الصوت ثم صمت • فسألت : « أهذه هي النهاية ؟ » فقال الصوت : « كلا ، ولكن هناك

نهاية • ويبدو أنها حين أخلي سبيلها عادت الى الطفل• كان الوقت مساء ، وكان الطفل مضطجعا على سريره وحيدا ، وكان الآخرون يتناولون وجبة المساء في قاعة المائدة • وكان الطفل قد نال نصيبه من الضرب ،ومن التشهير في وسط جماعة في مثل عمره • لقد علموهم هكذا • فأخذته بين ذراعيها وحملته ، وأخذت تلاطفه لكي يذهب معها الى التخشيبة • وقد تعجبين كيف عرفت هذا • لقد عرفته زوجتي ، التي كانت قد بقيت في المطبخ في أثناء الاجتماع لتعد وجبة المساء ، كما قالت لي ، وكان هذا تظاهرا منها ، ولكنه كان مفيدا وحين كان الناس يتناولون العشاء في المطعم الشعبي تسللت خلسة الى مركز الحضانة ، فرأت أمي تدخل اليه وتطوق الصبي بذراعيها • لقد تقدمت أمي من الصبي بخفة ، وقالت له شيئا كهذا — « أترى يا ولدي كيف أنني أصبحت الآن عبئا على ابني ؟ لقد أصبح مرغما على أن يضربني ولم يعد في وسعي أن أساعده بحياتي • انني أرى ذلك ••• فهلم معي يا ولدي الصغير ، ولنذهب الى مكان خير من هذا » •

« كانت شفتا الطفل متورمتين بلون الارجوان ، الا أنه سألها بهدوء تام : « أين الفراشة الفضية ؟ » فقالت أمي — « هلم معي ، سنذهب الى النهر ، وهناك تجد فراشات عديدة تتجمع على النهر لتشرب ، فراشات حية حقيقية » •

« ورأت زوجتي أمي تقود الصبي وتبتعد به ، فسارت خلفهما في عتمة الغسق منحدرة نحو حافة النهر • وأخذت أمي الطفل بذراعيها ، فتعلق بعنقها وألقى برأسه على كتفيها ، فسارت به في داخل النهر الهادىء • لم يكن هنالك ريح في ذلك المساء ولا أمواج • وظلت زوجتي تراقب من خلف دغل من الصفصاف • وظلت أمي تسير في وسط الماء الى أن غمر رأسها ورأس الصبي ، ولم يعودا يظهران • هذه هي النهاية » •

فسألت — « وزوجتك ، ألم تفعل شيئا ؟ »

فأجاب الصوت — « ان زوجتي امرأة طيبة ، فلم تفعل شيئا • »

وكان الصمت هذه المرة طويلا • وهل كان في وسعنا أن نقول شيئا ؟

ولكن حتى الصمت لا بد له من نهاية والا أصبح لا يطاق • فسألت — « وماذا تم في أمر الجسر ؟ » •

فعاد الصوت يتكلم، وقد أدهشني أنه كان يختلف عن قبل وان كان من المؤكد أن المتكلم كان الرجل عينه ، فلقد هدأ الصوت بغتة : « لقد انتهى الجسر ، وهو متين وعريض ، جدا ، مثل جسوركم الامريكية • ان له أربع طرق : اثنتين من الشمال الى الجنوب ، واثنتين من الجنوب الى الشمال ، لكي يسهل على السيارات والناس السفر في كلا الاتجاهين في وقت واحد » •

فقلت : « ان لبعض جسورنا ست طرق » •

فأجاب الصوت حالا : « لقد سمعت أن طريقين آخرين سيضافان أيضا الى جسرنا » •

فقلت : « مدهش ، ولا سيما حين يمتد على عرض نهر كهذا • نحن ليس لدينا نهر في مثل عرض هذا النهر وسرعته • لا بد أنكم فخورون جدا بالجسر» •

وجاء الجواب موجزا : « أوه ، نعم ، نحن فخورون بالجسر نفسه ، ولكن ••• »

ثم انقطع الصوت ، وساد الصمت بيننا من جديد وهو في هذه المرة سد لا يمكن تحطيمه ، فقد ذهب الرجل : « أليختبىء في ملجأ سري في احدى غرف المدينة ، أم ليعود الى الغرفة التي هرب منها ؟

من يدري ؟ »

طلائع النهاية

شعر: وصفي قرنفلي

حسبي ، فهذا دمي قد جف ، واتأدت خطاي وانطفأت في دربي الشهب

أمضي مع الدرب ، حيران الخطا قلقاً والتيه يجهش في قلبي ، وينتحب

جفّ البيان ، وكان الورد في شفتي وكنت إن قلت شعراً برعم الأدب

تمر سمراء ، إن مرّت ، فيتبعها طرفي فيكبو ، فيغضي والهوى تعب

ويزأر العصر أحداثاً ، فألجمها بالصمت ، كالقبر لا شوق ولا غضب

وكنت - اذ كنت - شعراً كلما ومضت بنا الحوادث كالتيار اصطخب

إن قلت — والعرب الأحرار في قلمي — كأنني — وأنا منهم — انا العرب

على الشفاه — وما لي لا ادلّ بها — قصائدي خمرة ، أو نكهة عجب

صحا السراب ؛ فنام الشعر في كبدي كان السراب منى ، إن المنى لهب

الكأس تلهث في كفي وقد ظمئت والصمت متكيء ، كالكأس مكتئب

ياذكريات اسكبي في الكاس مضطرماً كالنار من امسنا ، يضحك بها الحبب

خبت لياليّ إلاّ من تنهدة تئنّ ثكلى ، وإلاّ خافقاً يجب

حسبي ، وافرغت كأسي في قرارتها افرغت دنياي ، لا جد ولا لعب

احسّ - إن ملت بالصهباء اسكبها - كأن عمري وراء الكاس ينسكب

ارى النهاية خلف الدرب تومىء لي تخب نحوي ومشيي نحوها خبب

واليأس - هذا الفراغ الميت في كبدي - ليل تساوى لديه البعد والقرب

العقم ، والليل ، والصحراء ، تلك أنا حتى كأني إليّ الموت ينتسب

قلبي (كنرجيلتي) يغفو على حلم قل يا رماد ترى ، هل يورق الحطب

* * *

يادرب عد بي ، فصاح الدرب : واحزني وأطرق الشيب يبكي : فاتك الطلب

هيهات ! ان يسترد النبع جدوله ويورق الشوق في عنقوده عنب

اذا الشباب مضى ، فالعمر أطيبه مضغ الرمال ؛ سراب طعمه كذب

ماذا ؟ ومات سؤال لا جواب له ومال هدب ، وأغفى لايرى هدب

وساوس الأدب وهمومه

بقلم الدكتور
زكي المحاسني

حين قرأت فصولا عن أدب « أوجين ايونسكو » الاديب الروماني الذي نشأ في باريس ، ولقف الادب الفرنسي كأحاسن أهليه ، والذي هبت رياح أدبه في هذه الآونة ، وذاع له صيت بعيد وصل الى ديار العروبية ، وكتب المترجمون والنقلة أطرافا من فنه وأدبه ، أخذت في دهشة العجب،وابتعدت عن الطرب ، وجلت في أمره كل مجال ، حتى تفهمت ، على قدر مستطاعي ، مقاصده الفكرية في مسرحياته الجديدة ، وأشهر ما أدهش منها مسرحية « المغنية الصلعاء » ومسرحية « الكراسي » •

قال ناقدوه لقد كان أدب المسرح في الغرب ، من قبل أن يُحدث ايونسكو أحداثه فيه ، أدبا معتادا ، يجلس اليه النظارة فيفهمون الموضوع الذي تدور عليه المسرحية ، فاذا كانت رواية « روميو وجولييت » ـ على سبيل التمثيل ـ عرفوا أن أسرتين كبيرتين كانتا متنابذتين ، ومتذابحتين ، فعشق روميو من أسرة، جولييت من الاسرة الثانية ، فشب بين الحيين الخصام، وأرادا ليحولا دون غرام القلبين اللذين أعطيا في تاريخ الحب والغرام أمثولة من أدب شكسبير أبي الخلود ، لا تبلى حتى تذوب القلوب •

كل هذا يراه النظارة ويخرجون من مشاهدته كاسفي البال ، دامعي العيون ، وكذلك سائر الروايات التي كانت تمثل ويجري الناس على مشاهدتها حسبما تعودوه منذ موليير وشكسبير ثم ساشاغيتري الحديث بل منذ سوفو كل العتيق في أبعد الحدود من عهد الرومان والاغريق •

لكن ايونيسكو ، اذا جلس الجلاس الى مشاهدة روايته الجديدة لم يفيدوا شيئا سوى اضاعة ساعتين من سهرتهم في الاستماع الى كلام في كلام ، وحوار يدور في غير طائل ولا معنى مقصود ، حتى كأنهم يشاهدون الاخشاب الصماء وقد أعطيت قوة الكلام ، فتكلمت ولكن في حديث خشبي أو حديدي أو هوائي غير ملموس ولا مفهوم ، وليس وراء الجمل والكلمات التي تدخل في آذانهم معاني مقصودة أو مغمضة أو فلسفية خفية • ليس شيء من ذلك أصلا ، وانما الحوار الذي يجول على خشبة المسرح منطلقا من أفواه الممثلين كان يخيل الى المرء أنه محبوك ومترادف متواقع بعضه على بعض ، لكنه في حقيقة حاله هراء في هراء • وقد يسدل الستار في آخر فصل من فصول الرواية الايونيسكية ، دون خاتمة ، أو حطيطة ، بل ربما كانت خاتمة من الخواتيم تتجه الى المشاهدين أنفسهم لتدخل بعضهم في الرواية فينحدر التمثيل من المسرح الى ما بين المقاعد والى الردهة ذاتها ، التي كانت ، قبل حين ، مكانا للنظارة ، فاذا بها تصبح ساحة للرواية نفسها •

ولكن هذا الاديب المسرحي الذي نم خبره الحديث، لم يكن في باطن أمره ذا لغو أو هراء ، وانما أحسبه ـ بما استبصرت من آثاره ، واستجليت من خبره ـ مفكرا عميق التفكير ، يريد ليبدل في فن المسرح المتقادم عهده ، فهو ينشىء مسرحيات من طراز عفوي الحدوث، اذ يذهب بالمسرح الى تخليصه من طوابعه المدرسية وأوضاعه التقريرية التي كثر فيها المنظوم والمنثور جوالين في الفلسفة والفن والعظات والاخبار والفضائح والمثالب • وقد جعل همه في هذا التخليص أن يقيم

مسرحا للسلوى فقط ، ولنسيان الهموم ، بل للانصراف الذاتي عن الذات نفسها • انه يريد أن يريح الفكر ، لا أن يتبعه بملاحقة معاني الرواية ، حتى اذا قامت حلقة من هذه المعاني انقطعت أسباب فهم الرواية • فحلقاته كلها متناثرة ، متقطع بعضها عن بعض ، لا تمض الى غاية ، ولا الى أمر معقول ، ومن ههنا رموه بكلمة (اللامعقول) التي لا أستطيع ادخالها حوزة لغتنا وهي في هذا اللباس والقياس ، ولعلي أتقبلها اذا قلت فيها « ما لا يعقل » ومن هذا اللفظ العجيب أنسحب الى أبي الطيب المتنبي ، صاحبي الذي لا أبارح مجلسه في ساعة من يومي أو ليلي أو أحلامي • أفليس يقول — أثابه الله كل نعمى في آخرته عما استبق اليه في دنياه ، حتى أكاد أجده في جملة واحدة قد لخص قبل أكثر من ألف عام الفكرة المسرحية عند ايونيسكو عجيب المسرح في القرن العشرين إذ يقول صاحبنا أبو الطيب في بعض شعره « وبعض العقل عُقال » وتحليل عبارته مآله فيها ، أن العقل انما سمي عقلا لانه يعقل المرء عن الخطأ ويعصمه من الخطل ويقف بصاحبه على أوجه الصواب • لكن هذا العقل ذاته قد يجوز عن الصواب ويجور فيه فيكون عُقالا •

— وما هو العقال ؟•

— انه داء يصيب الخيل في أرجلها فيعقلها عن المشي ••

والى هذا ذاته في « العقل والمعقول » قصد اوجين ايونيسكو ، فأراد ليخلص مشاهدي الروايات والمسرحيات من الامر المعقول ، فأعطاهم أمرا « غير معقول » •

كتبت هذا وأنا أقول لنفسي : ما أكثر وساوس الادب وهمومه ، ثم سألت هذه النفس لتجيب بانصاف:

— هل حقا أيتها النفس كنت تؤثرين في الادب البعد عن الوساوس وكنت تبحثين عما يجلو الهموم ؟

وقد أجابت النفس بعد التأمل في المذهب المسرحي الجديد الذي ابتكره ايونيسكو :

— لقد جاءت وساوس الادب وهمومه من أموره المعقولة !

ثم استنجدت النفس بأبي الطيب مرة ثانية بحيث يقول :

« ذو العقل يشقى في النعيم بعقله »

ويشاء الاتفاق الدامر ، وهو ما يسمونه بالصدفة، أن ينتزع ايونسكو فنّه الجديد في البعد عن المعقول من كتاب في تعليم اللغة الانكليزية ، كان اشتراه ليتعلم هذه اللغة في مدة وجيزة ، كما كتب مؤلفه على ظاهره ذلك ، فوجد هذه العبارات :

— هل جاء السيد روبير

— نعم جاء السيد روبير •

— وهل نسافر الى لندن •

— كلا لن أسافر الى لندن •

وهكذا وجد الكتاب كله حوار في حوار في غير طعم أو مقصد معقول ، وانما هو تدريب على حفظ جمل متناثرة لا رابطة بينها ، والمقصد منها تكلم اللغة اللغة الغربية • فلم يصنع جديدا سوى أن أدخل مثل هذا الحوار في مسرحياته •

واني أقول :

لئن خرج هو من كتابه بما علق في ذهنه من الجمل المتقطعة المفيدة في معرفة لغة جديدة، فان جمهوره الذي شاهد روايته خرج بما لم يعلق بذهنه في شيء مما قاله بلسان شخوص الرواية •

ولو سأل سائل صاحبه ، وهو يخرج من دار التمثيل :

— ماذا أفدنا ؟

— أفدنا السلوان •

ولعمري ان السلوان أمر غير معقول •

١٥ تموز ١٩٦٤ الدكتور زكي المحاسني

غوسيف (قصة)

لانطون تشيخوف

تعريب: جورج سالم

— ١ —

كانت العتمة مخيمة والليل على وشك الهبوط .

نهض غوسيف عن سريره ، وهو جندي بسيط أعيد الى وطنه ، وقال في صوت منخفض :

— هل تسمع يا ايفانيتش ؟ لقد روى لي أحد الجنود في (سوتشان) أن باخرتهم حين أقلعت قد اصطدمت بسمكة كبيرة ، فانشق قعر الباخرة .

فلم ينبس الرجل ذو الوضع الاجتماعي المجهول الذي كان غوسيف يوجه اليه الكلام ، وكان الجميع في ردهة المستوصف يدعونه ايفانيتش فلا يجيبهم كأنه لم يكن يسمع .

وخيم الصمت من جديد .. الهواء يتيه في العنابر ، والمحرك يدق ، والموجات تهدر ، الا أن الآذان قد ألفت هذه الضجة منذ زمن بعيد . وكان يبدو أن كل شيء حول ذلك المكان ينام ويحتفظ بصمته . ان المرء ليشعر بالسأم ، والمرض الثلاثة — جنديان اثنان وبحار — الذين أمضوا النهار يلعبون بالورق قد ناموا وراحوا يحلمون بصوت عال .

بدأت الباخرة — فيما يبدو — تهتز ، وسرير غوسيف يعلو وينخفض ببطء ، كأنه يتنفس — حدث ذلك مرة ومرتين وثلاث مرات ... ان شيئا ما يصدم السقف ويرن : لا بد أن حارس السفينة قد وقع .

قال غوسيف وهو يرهف سمعه :

— لقد هاجت الريح .

في هذه المرة سعل ايفانيتش وأجاب بنبرة مغيظة:

— تقول مرة، انهذه سمكة فد صدمتها السفينة، وتقول أخرى ان الريح قد هاجست ... هل الريح حيوان فيقطع قيده ؟

— هكذا يتحدث المسيحيون .

— ان المسيحيين لا يقلون عنك جهلا ... والله يعرف ما يقولون ! ينبغي أن يكون للمرء رأس على كتفيه وأن يحاكم . يا لك من كائن سخيف !

يتعرض ايفانيتش لدوار البحر . وهو يغضب في العادة ويحتد حين تهتز السفينة لأدنى مخاصمة . وقد سخط من رأى غوسيف ، لا لشيء مطلقا . فأية غرابة في سمكة أو ريح تعصف ؟ هب أن السمكة كبيرة كالجبل ذات صلب قاس كالخفش . وهب أيضا أن هناك في نهاية العالم ، جبالا من حجارة صلدة وأن الرياح الهائجة مقيدة عليها ... فان لم تقطع قيودها فلماذا تهب على مدى البحر كالمسوسين ، وتتمزق كالكلاب ؟ واذا لم تقيد فأين هي حين يكون كل شيء هادئا ؟

يفكر غوسيف طويلا بسمكات في حجم الجبال وبقيود صدئة ، ثم يستولي عليه الملال فيروح يفكر في وطنه الذي يعود اليه الآن . بعد أن قضى خمس سنوات في الشرق الاقصى وترتسم أمام عينيه بحرة ممتدة مغطاة بالثلج ... وعلى أحد أطرافها معمل للبورسلين قرميدي اللون مع مدخنة عالية وسحب من الدخان الاسود ، وعلى الطرف الآخر قريته ، ومن باحة المزرعة الخامسة بدءا من نهاية القرية تخرج

زلاقة أخيه الكسي ، ويجلس خلفه ابنه فاسيا المنتعل حذاء كبيرا من الفوتر ، وبنته أكولكا ، المنتعلة هي الاخرى حذاء من الفوتر • يبدو على ألكسي أنه سكران • وفاسيا يضحك أما وجه أكولكا فلا يرى لانه ملفوف بالفراء •

فكر غوسيف في نفسه « أخشى أن يتجمد الولدان ••• » ثم تمتم : « امنحهما يا رب العقل والحس السليم لكي يوقرا أهلهما ولا يشغل ذهنهما الا بأبيهما وأمهما ••• »

هذى البحار المريض بصوت أجش :

ــ اننا بحاجة الى نعال جديدة • نعم ، نعم !

حدث انقطاع في أفكار غوسيف ، وظهرت فجأة ، في غير حينها ، رأس بقرة كبيرة لا عينين لها مكان البحيرة ، ولم يعد الحصان والزلاقة يتقدمان بل راحا يدوران في دخان أسود ، انه لسعيد مع ذلك لانه لمح أسرته ، والفرح يبهر أنفاسه ، وشعر كأنه نسالا تدب على جسمه كله وارتجفت أصابعه ، وهذى بصوت مرتفع :

ــ لقد سمح الله لنا باللقاء •

ولكنه سرعان ما فتح عينيه وبحث عن الماء في الظلمة •

شرب وعاد فاضجع ، وعادت تمر الزلاقات ، ثم ظهرت من جديد رأس البقرة التي لا عينين لها والدخان والسحب •• وهكذا حتى الفجر •

ـ ٢ ـ

ارتسمت الظلمة في دائرة زرقاء أول الأمر : كانت تلك كوة السفينة • ثم تبين غوسيف شيئا فشيئا بول ايفانيتش زميله في القمرة • كان ينام وهو جالس لأنه يختنق اذا ما استلقى • كان ذا وجه رمادي وأنف أقنى وعينين جعلهما هزاله المخيف تبدوان كبيرتين • كان صدغاه غائرين ، ولحيته مبعثرة وشعره طويلا •••

ويستحيل على المرء اذا نظر الى وجهه أن يخمن وضعه الاجتماعي : أهو نبيل ، أهو تاجر أو فلاح ؟ ان تعبير وجهه وشعره الطويل يحملان المرء على الاعتقاد بأنه ناسك • أو راهب مبتدىء ، أما حين يصغي اليه فانه يدرك أنه ليس راهبا • ان سعاله والمظهر الخانق لمرض قد استنفدا قوته ، فهو يتنفس ويحرك شفتيه اليابستين في صعوبة • واما لاحظ أحد أن غوسيف ينظر اليه ، التفت اليه وقال :

ــ بدأت أخمن ••• نعم ••• الآن فهمت فهما تاما •

ــ ماذا فهمت يا ايفانيتش ؟

ــ هاك •• لقد كنت أستغرب دائما أن مريضا مثلك بدلا من أن يخلد الى الراحة نراه فوق مركب حيث يختنق الناس ويحترقون ويهتزون • وبكلمة واحدة ــ حيث كل شيء يهدد بالموت • أما الآن فكل شيء يبدو واضحا بالنسبة الي •• نعم •• ان أطباءكم قد وضعوكم في الباخرة كي يتخلصوا منكم ، لقد ملوا من العناية بكم ، أنتم أيها البهائم •• فلستم تدفعون لهم أجرا ، وتربكونهم ، وسيحمل موتكم الفوضى الى أوضاعكم ، اذن فأنتم بهائم ! ولكن ليس من الصعب أن يتخلصوا منكم ••• يكفي لذلك أولا ألا يكون لديهم ضمير أو انسانية ، وان يخدعوا ربان السفينة ثانيا • ويمكننا أن نهمل الشرط الاول ، فنحن في هذه الناحية مبرزون • أما بالنسبة للشرط الثاني فانهم ينجحون دائما بعد شيء من المران • ففي مجموعة مؤلفة من أربعمائة جندي وبحار أصحاء ، يمكن أن يمر أربعة مرضى أو خمسة دون أن يلحظهم أحد • وهكذا دفعوا بكم الى الباخرة وخلطوكم بالاشخاص الاصحاء ، وقاموا بتعدادكم بسرعة ، وفي غمرة الفوضى لم يلحظ أي انسان شيئا غير عادي ، ولكن حين أقلعت السفينة رأى الناس أن هنالك

مشلولين ومسلولين في الدرجة الاخيرة ، يجرون أنفسهم على سطح السفينة ...

لم يفهم غوسيف ما قصد اليه ايفانيتش، فقال يبرر نفسه ، وهو يظن أن في الامر تأنيبا له :

ـ كنت مضجعا على السطح لانني لم أكن أقوى على شيء ، وحين نقلونا من الزورق الى الباخرةشعرت ببرد شديد .

فتابع ايفانيتش كلامه :

ـ ان هذا لعمل منكر ! لا سيما وانهم يعرفون حق المعرفة بأنكم لا تتحملون هذه الرحلة الطويلة . ولكن هذا لايسنعهم من ترحيلكم مع ذلك ! لنفترض أنكم وصلتم الى المحيط الهندي فماذا بعد ؟ ان التفكير في ذلك لمخيف ... وهذا هو تقديرهم لسنين خدمتكم النزيهة الشريفة !

أدار ايفانيتش لحظا حانقا ونظر شذرا ثم قال وأنفاسه تتلاحق :

ـ ما أجدر هؤلاء الجنديان بأن يشهَّر بهم في الصحف تشهيرا يسقط القلم في يد حامله .

كان الجنديان والبحار قد استيقظا وراحا يلعبان بالورق . كان البحار مضجعا نصف اضجاعة على سريره ، والجنديان جالسين على الارض بالقرب منه جلسة غير مريحة ، كانت ذراع أحدهما معصوبة ، ويده محاطة فعلا بضماد ، مما جعله يمسك بالورق تحت ابطه الايمن أو بمفصل عكسه الايمن ويلعب باليد اليسرى . كانت الباخرة تهتز اهتزازا عنيفا ، ويستحيل على المرء أن ينهض ويشرب الشاي ويتناول دواءه .

سأل ايفانيتش غوسيف :

ـ هل كنت جنديا ؟

ـ نعـــم .

فهز ايفانيتش رأسه في حزن وقال :

ـ يا الهي ، يا الهي ! ما معنى أن ينزع الانسان من عشه المنزلي ، ويحمل على بعد خمسة ميلا ، ثم يصاب بالسل و ... لماذا كل ذلك ؟ أسألك ؟ ألكي يجعل جنديا في خدمة بعض الضباط أو الرايات ، انه لمنطق عجيب !

ـ ليست مهنتنا بصعبة يا ايفانيتش ، فكل منا يستيقظ في الصباح ويصبغ حذاءه ويعد السموفر ويقوم بالخدمة ثم لا يبقى لديه أي عمل . ان الملازم يرسم المخططات طوال النهار وأنت تصلي ان كان يسرك ذلك ، أو تقرأ ان كانت القراءة تهمك ، أو تتنزه ن كنت تحب ذلك ، فليمنح الله كل انسان مثل هذه الحيـــاة .

ـ أجل ، ان هذا لحسن جدا ! فالملازم يرسم المخططات ، وتظل أنت جالسا طوال اليوم في المطبخ ، تحن الى وطنك ... المخططات ... ليست القضية قضية مخططات بل حياة انسان . ان الانسان لايعطي الحياة مرتين ، ولهذا فيجب أن يكون بها مقتصدا .

ـ لا شك في هذا يا ايفانيتش ، فالتابع السيء لا يجد راحة في أي مكان لا في بيته ولا في الخدمة . أما اذا تصرفت كما ينبغي ، وأطعت رؤساءك ، فمن يشعر بحاجة الى الحاق الأذى بك ؟ انهم لسادة مثقفون ، وهم يفهمون ... انني لم أتعرض ، خلال خمسة أعوام من الخدمة للسجن يوما واحدا ، ولم أضرب أحدا ، ان لم تخني الذاكرة الا مرة واحدة ...

ـ لماذا ضربت ؟

ـ لاننا تخاصمنا . ان لي يدا قاسية يا ايفانيتش. فقد دخل أربعة من رجال (المنزا) الى باحتنا ،وكانوا يحملون الحطب فيما أظن ، لانني لم أعد أذكر ذلك، فتضايقت منهم وضربتهم على جنوبهم ، فرعف واحد منهم ، يا له من لعين ... ورآه الملازم من كوة الباب، فغضب وضربني فوق .

فتمتم ايفانيتش :

ــ لأنت انسان محدود الذكاء ، تستدعي الشفقة .. ولست تفهم شيئا .

ثم اغلق عينيه ، وقد استنفد اهتزاز الباخرة قواه كلها ، وكانت رأسه تقذف الى الوراء مرة ثم تعود فتسقط فوق صدره مرة اخرى . وحاول عدة مرات ان يتمدد ولكنه لم يوفق إلى ذلك ، فقد كان الربو يحول دونه .

وسأله بعد عدة لحظات :

ــ لماذا ضربت رجال (المنزا) ؟

ــ لا لشيء . كانوا قد دخلوا الباحة فضربتهم .

وساد الصمت ... كان اللاعبون يلعبون خلال ساعتين تقريبا ، في حماسة وهم يقسمون الايمان ، الا أن الاهتزاز قد اتعبهم هم أيضا ، فتركوا الورق وتمددوا .. ورأى غوسيف مرة اخرى في مخيلته مستنقعا وسياجا وقريته ... وعادت الزلاقات الى المرور، وعاد فانيا يضحك، واكولكا البلهاء قد أزاحت طرف ردائها المبطن بالفرو واخرجت ساقيها ، وبدت كأنها تقول : انظروا أيها الناس الشجعان ، ان حذائي ليس كحذاء فانيا ، ان حذائي لجديد .

وهذي غوستيف قال :

ــ ستبلغ العاشرة منعمرها ولكنها ماتزال حمقاء! فبدلا من ان تخرجي ساقيك احضري لعمك الجندي ماء ليشربه ، وسأعطيك شيئا ما .

هو ذا اندروف الذي يتنكب بندقية ، وقد حمل ارنبا مقتولا ، ووراءه إزايتشيك اليهودي الشيخ يعرض عليه ان يقايضه بالارنب قطعة صابون . وهذه عجلة سوداء في حجرة الدخول ، وهذه (دوما) التي ترقع القميص وهي تبكي ، وهذه رأس البقرة تظهر من جديد والدخان الاسود ...

صرخ شخص ما من الطابق العالي بصوت مرتفع ومر بعض البحارة وهم يركضون ، لا بد انهم جروا على السطح شيئا ثقيلا أو أن شيئا قد طقطق ، ومر رجال من جديد وهم يركضون ، ترى هل حدث مكروه ؟ رفع غوسيف رأسه واصاخ السمع ورأى الجنديين والبحار قد عادوا يلعبون بالورق . كان ايفانيتش جالسا يحرك شفتيه ، ان الحرارة خانقة وليس يقوى الانسان على ان يتنفس . يشعر المرء بالعطش غير ان الماء حار ومنفر ... والاهتزاز لا يتوقف ابدا .

وفجأة حدث شيء غريب لاحد الجنود الذين كانوا يلعبون بالورق ، فسمى الكبا ديناري وأخطأ في العد ، وتراخت يداه عن اوراقه ثم ابتسم على نحو مفزع وبليد وادار لحظه فيما حوله . وقال :

ــ سأعود سريعا أيها الرفقاء ... واضجع على الارض .

اضطرب الجميع ونادوه ، فلم يجب نداءهم .

سأله الجندي الآخر ذو الذراع المعصوبة :

ــ لعلك يا استيفان لست على ما يرام ؟ أليس كذالك ؟ ربما وجب ان نستدعي الكاهن ؟

وقال له البحار :

ــ اشرب يا استيفان ، خذ ياصديقي واشرب .

وقال غوسيف الذي كان غاضبا :

ــ ما غايتك من طرق مطرتك على اسنانه . ألست ترى اذن أيها المفزع ؟

ــ ماذا ؟

قال غوسيف يحاكيه :

ــ مماذا ؟ انه لم يعد يتنفس ، لقد مات ! اليك مطرتك ! يا الهي ، انه بحاجة الى فراش ! .

ــ ٣ ــ

كفت الباخرة عن الاهتزاز واستعاد ايفانيتش بشاشته . لم يعد غاضبا بل اتخذ شكلا جافيا متحديا

ساخرا . وبدا كأنه يقول : « اجل سأنبئكم بأمريجعل احشاءكم تنفجر ضحكا . « كانت الكوة مفتوحة فهبت عليه نسمة خفيفة من الخارج ، سمعت اصوات وهدير مجاريف فوق الماء ... تنهد ، تحت الكوة نفسها ، شخص ما بصوت خافت مستاء : لا بد أنه صيني يغني . فقال ايفانيتش في ابتسامة ساخرة :

ـ نعم ، ها نحن قد بلغنا المرفأ ، وبعد شهر نصل الى روسيا ، اجل ايها السادة الجنود . سأصل الى اوديسا ومن هناك سأركض نحو خاركوف . ان لي صديقا اديبا هناك ، سأمضي لمقابلته وسأقول له : ايها الصديق دع الى حين قصصك الكريهة عن غراميات الفتيات وجمال الطبيعة واحسر القناع عن الشناعة بسرعة ... اليك مواضيع لأدبك .

وفكر لحظة ثم قال :

ـ هل تعرف يا غوسيف كيف خدعتهم ؟

ـ من تعني ؟

ـ اولئك ... أنت تفهم ، لم يكن على الباخرة أماكن الا في الدرجة الاولى والثالثة ، أضف الى ذلك ان الفلاحين هم وحدهم الذين يسمح لهم بركوب الدرجة الثالثة أي القرويين الجفاة ، فان كان لديك سترة ، وكنت تشبه ـ ولو شبها بعيدا ـ شخصا أو بورجوازيا ، فعليك أن تسافر في الدرجة الاولى . مت اذا شئت ولكن ينبغي ان تدفع خمس مئة روبل « فسألتهم : لماذا وضعتم مثل هذا النظام ؟ أليست غايتكم من ذلك أن ترفعوا من قيمة المثقفين الروسيين؟» كلا على الاطلاق ، اننا لا نسمح بذلك ، الا ان انسانا ممتازا لايستطيع بكل يسر أن يسافر الى الدرجة الثالثة ، فركابها منفرون جدا يثيرون الاشمئزاز ، ـ آه ـ نعم وشكرا لعنايتكم بالاناس الممتازين . وعلى كل حال فسواء أكان ذلك منفرا أم لا ، فأنا لا أملك خمس مئة روبل ، لانني لم أسرق بيت المال ولم أستغل الغرباء ، ولم أقم بأعمال القرصنة ولم أقتل أحدا بالعصا ، وعليكم اذن ان تحكموا بأنفسكم هل يحق لي أن أشغل مكانا في الدرجة الاولى وان أصنف بالتالي في زمرة المثقفين الروسيين ؟ بيد ان الانسان لا يستطيع أن يتغلب عليهم بالمنطق ... فكان لابد من اللجوء الى الحيلة ... فضممت دراعة وانتعلت حذاء كبيرا واتخذت سحنة قروي ثمل وتوجهت نحو الموظف وقلت له : « اعطني يا صاحب السيادة بطاقة ... » فسألني البحار :

ـ ولكن من أنت ؟

ـ من رجال الدين . كان أبي كاهنا ، ولقد جاهر دائما كبار هذا العالم بالحقيقة ، وكلفه ذلك آلاما كثيرة .

تعب ايفانيتش من الكلام وغدا يتنفس بصعوبة، ومع ذلك فقد تابع حديثه :

ـ نعم لقد جهرت امام الناس دائما بقول الحقيقة، انني لا أخشى أي شيء أو أي انسان ، وان بيننا ، في هذه الناحية لاختلافا عظيما ، فأنتم اناس جهلة عمي ، مخبولون أنتم لاترون شيئا ، ولا تفهمون ما ترون ... يقولون لكم ان الريح تقطع سلاسلها، وانكم بهائم فتصدقون ذلك ، ويصنعونكم فتقبلون يدهم ، ان حيوانا في جلد فأر يسرقكم ثم يلقي اليكم بقطعة من المال صغيرة ، مكافأة ، فتقولون له : « اسمح لنا بيدك نقبلها من فضلك ايها السيد » . انكم محتقرون تثيرون الشفقة ... أما أنا فشيء آخر .. ان لي حياة واعية فأنا أرى كل شيء كالنسر أو العقاب الذي يطير فوق الارض وأفهم كل شيء. انني الاحتجاج مجسما ، فاذا رأيت الاستبداد ، احتججت ، أو رأيت منافقا أو مرائيا احتججت ، وان رأيت خنزيرا ينتصر احتج ، واني انسان لايخضع لأحد ، وما من محكمة تفتيش اسبانية تستطيع أن تكم فمي . لا... فاذا قلعوا لساني ، أحتج بالحركات واذا سجنت في قبو فسأصرخ بصوت عال جدا حتى

يسمعني الناس على بعد أميال ، وأحمل نفسي على الموت جوعا لكي يكون ذلك ثقلا جديدا على ذممهم، واذا قتلوني فسأعود على شكل شبح • ان كل الذين يعرفونني يقولون لي : « انك لانسان لايطاق يا ايفانيتش » • واني بهذه السمعة لفخور • لقد قمت بالخدمة ثلاث سنوات في الشرق الاقصى وسيذكرني الناس طوال قرن : فقد خاصمت الناس جميعا ، يكتب الي أصدقائي من روسيا قائلين : « لاتعد » ولهذا فأنا لا أبيت أي شيء لازعاجهم بل أعود • • نعم ••• هذا معناه أن يعيش الانسان ، وأنا أفهم ذلك • وهذا ما يمكن أن ندعوه الحياة •

لم يكن غوسيف يصغي اليه • كان ينظر من الكوة • ان زورقا يهتز فوق الماء الشفاف ذي الزرقة العذبة ، المغمور كله بشمس محرقة ملتهبة • وثمة صينيون عراة واقفون في الزورق يمدون أقفاصا فيها الكنار ويصرخون :

ـ انه يغني ، انه يغني !

يصدم الزورق الاول زورق ثان ، ويمر مركب بخاري بأقصى سرعة • هو ذا زورق آخر يجلس فيه صيني بدين يأكل الارز بالقضبان • يتموج سطح الماء في كسل وتطير النوارس البيض فوقه في كسل •

فكر غوسيف في نفسه وهو ينظر الى الصيني البدين ويتثاءب :

« كان ينبغي أن يضرب هذا السمين ضربات متواصلة » •••

وغنا ، وخيل اليه ان الطبيعة كلها تغفو • الزمن يمر سريعا ، وينقضي النهار دون أن يشعر الانسان بانقضائه • ويخيم الليل دون أن يشعر به أحد ••• لم تعد الباخرة ثابتة في مكانها ، لقد عادت فمضت الى مكان ما ، الى مكان نأى •

— ٤ —

مر يومان اثنان • لم يعد ايفانيتش جالسا بل مضجع ، مغمض العينين ، يبدو أنفه شد حدة •

ناداه غوسيف :

ـ ايفانيتش ، ايه ايفانيتش ••

ففتح هذا عينيه وحرك شفتيه •

ـ لست على ما يرام ؟

فأجابه ايفانيتش الذي كان يختنق :

ـ بلى ، لا بأس •• لا بأس ، بل على العكس•• انني في حال فضل ••• أرأيت أنني استطيع ان أبقى ممددا ايضا ••• ان الحال تسير الى الأفضل••

ـ آه ، ليتبارك الرب يا ايفانيتش •

ـ عندما اوازن نفسي بكم ، فانني أشعر بالشفقة عليكم••• يالكم من بؤساء أما أنا فان رئتي قويتان، وهذا السعال مرده الى معدتي •• انني في حالة تتيح لي أن أتحمل الجحيم ، بله البحر الأحمر ! والى ذلك فأنا أستطيع ان ابدي احكاما عن مرضي وعن الأدوية ••• اما انتم •• معشر الجهلة •• فالامرقاس بالنسبة اليكم ، قاس جدا جدا •

لم تكن الباخرة تهتز ، وكان البحر هادئا • ومقابل ذلك كان الحر شديدا وثقيلا كأنه حرارة مجففة ، ان المرء ليشعر بمشقة لا في الكلام وحسب بل في الاصغاء ، ضم غوسيف ركبتيه بين ذراعيه لذة في أن يحلم المرء بالثلج والبرد وهو في مثل ووضع رأسه فوقهما وراح يفكر بوطنه ، يا الهي أية هذا الاتون ! انهم في زلاقة وها هي ذي الخيول تفزع فجأة وتجمح ، ثم تهرب كأنها مغيظة بعد أن ترى انها لاتعرف لها طريقا أو خندقا أو شعبا من اول القرية حتى آخرها خلال البحرة ، على مدى المعمل ، ثم من خلال الحقول ••• صرخ مستخدمو المعمل والسابلة: « ولكن لماذا يريدون ايقافها ؟ فليسقط على قبعتك

النسيم المجمد الذي يصيب الوجه ويقرص الايدي، وكوم الثلج التي تثيرها الحوافر ولتصر أخشاب الزلاقة ولتنقطع السيور والحلقات ، وليحملها الشيطان ! وأية لذة يشعر بها الانسان حين تنقلب الزلاقة ويستلقي على كومة الثلج وأنفه في الثلج ثم ينهض بعد ذلك أبيض كله وقد علقت بشاربيه قطع الثلج ، لا قبعة ولا قفاز ، مفكوك الحزام .. الناس يضحكون في صخب ، والكلاب تنبح . .

فتح ايفانيتش عينيه نصف فتحة فنظر الى غوسيف وسأله ببطء :

ــ غوسيف ؟ هل كان قائدك يسرق ؟

ــ من يعلم ذلك يا ايفانيتش ؟ لسنا نعرف ، ومثل هذا الامر لا يبلغنا نحن .

وهنا امتدت لحظة طويلة من الصمت ، كان غوسيف يفكر أثناءها ويهذي ويشرب الماء دون توقف ، كان يشعر بمشقة في الحديث أو الاصغاء ، ويخشى أن يوجه الكلام . ومرت ساعة وساعة وساعة : وحل المساء ثم الليل ، ولكنه لم يلحظ ذلك، كان ما يزال جالسا يحلم بالجليد .

سمع ضجيج ، كأن شخصا ما قد دخل المستوصف، ثم رنت أصوات ، ولكن دقائق خمسا مرت وصمت كل شيء .

قال الجندي ذو الذراع المعصوبة :

ــ فليمنحه الله ملكوت السموات والراحة الابدية. لقد كان انسانا قلقا .

فسأله غوسيف :

ــ ماذا ؟ ماذا ؟

ــ لقد مات فنقلوه الى فوق .

همهم غوسيف وهو يتثاءب :

ــ آه . ليمنحه الله ملكوت السموات .

وسأله الجندي ذو الذراع المعصوبة بعد لحظة من الصمت :

ــ ما رأيك يا غوسيف ؟ هل سيمنح الملكوت أم لا ؟

ــ عمن تتحدث ؟

ــ عن ايفانيتش .

ــ نعم ... لقد تألم طويلا ، ثم ان له وضعا دينيا، فللكهنة أسر كثيرة وسيصلون له .

جلس الجندي ذو الذراع المعصوبة على السرير قرب غوسيف ، وقال له بصوت منخفض :

ــ وأنت ياغوسيف ، لن تمكث طويلا على الارض ولن تصل الى روسيا .

فسأله غوسيف :

ــ هل سمعت الطبيب يقول هذا أم الممرض ؟

ــ لا أقول هذا لأنني سمعته من أحد ، ولكن الانسان يستطيع أن يرى ذلك ... فمن النظرة الاولى يرى الانسان الموشك أن يموت . فأنت لا تأكل ولا تشرب وقد هزل جسمك حتى غدا مخيفا . انه السل ، في مجمل القول . ولست أقول هذا لاقلقك، ولكن لعلك تود أن تتناول القربان وتتلقى مسحة الموتى . وان كان معك مال فعليك ان تعطيه للقائد .

تنهد غوسيف وقال :

ــ لم أكتب رسالة الى أهلي ، سأموت ولن يعلموا بموتي .

قال البحار المريض بصوته المنخفض :

ــ سيعلمون ذلك حين تموت سيشيرون الى ذلك في صحيفة الشاطيء ويسلمون ملخصا عنها في أوديسا الى قائد الجيش الذي يرسله الى المقاطعة أو الى حيث يجب ان يرسل ..

شعر غوسيف لدى سماعه هذه الاقوال بغم ، وبدأت تعتصره رغبة لاتوصف ، لن يفيده شيئا أن يشرب الماء ، أو يجر نفسه نحو الكوة ويستنشق الهواء الملتهب الرطب .. وان يحاول أن يفكر في وطنه .. وأخيرا شعر بأنه ان ظل دقيقة أخرى في

المستوصف فسيختنق لاشك ، فقال :

ـ وانني أشعر بألم أيها الشباب ، وسأصعد الى فوق ، خذوني الى فوق ، باسم المسيح !!

تنهد الجندي ذو الذراع المعصوبة :

ـ حسن ولكنك لن تصل الى فوق ، سأحملك ، تعلق بعنقي •

وضع غوسيف ذراعه حول عنق الجندي الذي شده بذراعه السليمة وحمله الى فوق • كان الجنود البحارة ينامون على السطح في فوضى : وكان عددهم كبيرا حتى ليصعب على المرء أن يمر •

قال الجندي ذو الذراع المعصوبة بصوت منخفض :

ـ ضع رجليك على الارض واتبعني في هدوء ، امسكني من قميصي ••

كان الظلام حالكا ، ولم يكن ثمة أي فانوس على السطح أو على الصواري أو في البحر • كان الحارس ينتصب في مقدمة السفينة جامدا كالتمثال، حتى ليظن انه نائم هو الآخر ، وبدت الباخرة كأن قيادتها قد أسلمت لها ، فهي تذهب حيث يطيب لها أن تذهب •

قال الجندي ذو الذراع المعصوبة :

ـ انهم يلقون ايفانيتش في البحر ، يضعونه في كيس ـ ثم في الماء •

ـ نعم ، هكذا يفعلون عادة •

ـ من الافضل أن يرقد الانسان في بلدته ، في الارض ، فأمك على الاقل تأتي دائما لتبكي على قبرك •

ـ هذا صحيح •

تنبعث رائحة السماد والعلف • خطم محني ، وثيران واقفة قرب المترسة • واحد ، اثنان ، ثلاثة •• ثمانية عددها كلها ! هناك أيضا حصان صغير ، يمد غوسيف ذراعه ليداعبها ، الا ان الحصان يهز رأسه ويظهر أسنانه ويحاول أن يعض قميصه •

قال غوسيف غاضبا :

ـ أيها الحيوان القذر •••

انسل هو والجندي كلاهما دون ضجة الى الامام، ثم توقفا أمام المترسة ونظرا صامتين الى فوق والى تحت • أما فوق فكانت السماء العميقة والنجوم المتلألئة والهدوء والصمت ـ تماما كما هي الحال في المنزل وفي القرية أما تحت فالظلام والفوضى • ليس من يدري سبب زمجرة الامواج العالية • ومهما كانت الموجة التي ينظر اليها فانها تحاول أن تتخطى الاخريات وتسحق الموجة المجاورة لها وتدفعها ، وتندفع فوقها موجة ثالثة تلتمع قمتها البيضاء في ضجيج لاتقل عنها غضبا أو قبحا •

ليس للبحر فطنة أو شفقة • فلو كانت الباخرة أصغر حجما ، ولو لم تكن مشيدة من الحديد السميك ، لكانت الامواج قد حطمتها دون أسف ، وأغرقت كل الركاب دون أن تميز بين الابرار والاشرار• ان للباخرة كذلك تعبيرا غبيا ورهيبا • فهذا الوحش ذو الأنف الكبير يخترق ما أمامه ويسحق في طريقه ملايين الموجات ، انه لايخشى الظلمات ولا الريح ولا المدى ولا الوحدة ، انه لا يبالي بشيء ، ولو كان للبحر سكان لسحقهم دون أن يميز كذلك بين الابرار والاشرار•

سأل غوسيف :

ـ أين نحن الآن ؟

ـ لا أدري ، لاشك أننا فوق المحيط •

ـ لسنا نرى الارض •

ـ أنعتقد ذلك ! يظن الانسان انه لن يراها طوال سبعة أيام •

نظر الجنديان الى الزبد الأبيض ذي الضياء الفوسفوري ولبثا صامتين يتفكران • كان غوسيف

أول من قطع الصمت قال :

ــ ليس هناك ما يفزع • اننا مغمومون وحسب شأن من يكون في غابة مظلمة ، واذا وضع الآن ، وهذه مجرد نرضية ، زورق كبير في البحر وأصدر أحد الضباط أمره بالذهاب للاصطياد على بعد مئة ميل من هنا ، فسأذهب أو اذا افترضنا أن مسيحيا سقط هذه اللحظة في الماء ، فسأرمي بنفسي لأنقذه ، انني لا أنقذ المانيا ، أو فردا من المنزا ، أما من أجل مسيحي فسأذهب •

ــ والموت ، هل تخشى الموت ؟

ــ أجل انني أتحسر على ملكي ، ان لي في المنزل أخا غير رصين ، فهو يشرب الخمر ويضرب زوجه دون سبب ، ولا يحترم ذويه ، وبدوني كل شيء نحو الدمار ، وكذلك أبي وأمي ، وأخشى أن يفضي بهم الحال الى التسول ، ومع ذلك فان ساقي يا صديقي لم تعودا تحملانني ، اننا نختنق ههنا ••• هيا نتم •

- ٥ -

عاد غوسيف الى المستوصف واضجع على سريره • فجثمت على صدره كما حدث له من قبل ، رغبة لا توصف ، ولم يستطيع أن يدرك الام يحتاج • ان ثقلا ينوء على صدره ، وطنينا يدوي في رأسه ، وفمه جاف حتى لايكاد يحرك لسانه ، فسكن وهذى ، ثم لم يلبث أن استسلم للنوم العميق حتى الصباح بعد أن استنفذت قواه الكوابيس والسعال والحرارة الخانقة • ورأى فيما يرى النائم انهم قد خبزوا الخبز في الشكنة وانه قد ولج الفرن ، واستحم بحمام من البخار وفرك جسمه بمكنسة ، ونام طوال يومين ، وظهر اليوم الثالث نزل بحاران ليحملاه من المستوصف •

لفوه في شراع من أشرعة السفينة وخيطوه ، ووضعوا معه قضيبين حديدين ليكون أثقل وزنا ، وما انتهوا من تخيطه أصبح له شكل جزرة أو لفتة : عريض على مستوى الرأس ، ضيق عند القدمين •• وحملوه قبل مغيب الشمس الى السطح ووضعوه على لوح يرتكز أحد طرفيه على المترسة ويرتكز الطرف الآخر على صندوق وضع فوق مقعد • وحوله وقف المسرحون من الخدمة العسكرية والبحارة حاسرين عن رؤوسهم •

بدأ الكاهن صلاته :

ــ تبارك الهنا كل حين الآن وكل أوان والى دهر الداهرين •

فأنشد ثلاثة من البحارة :

ــ آمين !

ورسم المسرحون من الخدمة والبحارة شارة الصليب وألقوا نظرة مواربة على الامواج • من الغريب أن يخاط الانسان في كيس من القماش وأن يلقى به ، هذه اللحظة ، الى الامواج ، هل يمكن أن يحصل ذلك لكل انسان ؟

ألقى الكاهن حفنة من التراب على جثمان غوسيف وانحنى ، فرتل الجميع نشيد الموتى •

رفع الحارس مؤخرة اللوح ، فانزلق غوسيف ، وشك رأسه أولا الى الأسفل ثم انكب على نفسه ، غطاه الزبد ، ثم ظهر خلال لحظة ملفعا بالداتنيل ، ولكن اللحظة مرت فاختفى في عباب الامواج •

كان يهوي بسرعة • أتراه يبلغ القاع ؟ ان قعر البحر كما يقال على عمق أربعة آلاف ميل • حين قطع غوسيف مسافة خمسة عشر مترا أو عشرين ، بدا يخفف سرعته ، واهتز اهتزازا موزونا كأن ذهنه يتأرجح وهو الآن اذ جذبه أحد التيارات بحيد بأسرع مما يهوي •

ولكن ها هو ذا يلتقي بكومة من السمك المدعو بالمرشد ، فتوقفت اذ لمحت جسما أسود كأنها مجمدة في مكانها ، وفجأة قامت كلها برجـوع الى الخلف واختفت . وبعد أقل من دقيقة هجمت من جديد على غوسيف سريعة كالسهام وراحت ترسم خطوطا معوجة حوله ...

وظهر بعد ذلك جسم آخر أسود كان قرشا ، وفي هيئة جادة وفي شيء من الأسف مر من تحت غوسيف كأنه لم يلحظه وسقط الجسم فوق شوكة ظهره ، ثم استدار القرش ، وصدره الى الهـواء ، واتخذ مريحة في الماء الفاتر الشفاف . وفتح ببلادة شدقه ذا الصفين من الاسنان كان البحارة منتشين: لقد توقفوا ونظروا ماذا سيحدث . لعب القرش لحظة مع الجثة وأمرّ شدقه تحتها ، كأنه يفعل ذلك رغما عنه ، وجسها بأسنانه في حذر ، فتمزق القماش على طول الجثمان من الرأس حتى القدمين ، وسقط أحد الثقلين الحديدين ، فأخاف البحارة وصدم جنب القرش وهوى في سرعة .

وتكدست الغيوم في الاعالي خلال ذاك الوقت. كانت غيمة منها تشبه قوس النصر واخرى تشبه الأسد وثالثة تشبه العصافير ... وبرز خلف الغيوم شعاع طويل أخضر انسحب حتى منتصف السماء ، وجـاء بعد قليل شعاع بنفسجي ليمتد الى جانبـه ، والى جانب هذا شعاع ذهبي ثم وردي ... وغدت السماء ليلكية عذبة . وحين نظر المحيط الى هـذه السماء الرائعة الساحرة بدأ يتخذ مظهرا عابسا ، ولكنه سرعان ما استعاد ألوانه العذبة الساطعة الحادة التي تعجـز اللغة الانسانية عن وصفها .

••••••••
••••

اعلان

تنفيذا لاحكام المادة ١٠ من القانون رقم ١٧٢ لسنة ١٥٦ المعدلة بالقاقون رقم ٢٩٢ لسنة ١٩٦٠

تعلن بلدية اللاذقية بأن مخططات منطقة حي التركمان طوق البلد تم تنظيمها ونشرها في بهو البلدية ومنطقة حي التركمان طوق البلد فيمكن لذوي العلاقـة الاطلاع عليهـا في الامـاكن المذكورة .

اللاذقية في ١٨/٧/١٩٦٤

المحافظ نسيم السفرجلاني

رئيس بلدية اللاذقية

ريف.. وريفيون

شعر: حامد حسن

ضَبَعٌ نُثِرنَ على السفو ح الحالمات، وفي التلال
غرقت بما نَجتنين من دنيا اخضرار، واخضلال
تعبت، فرش الليل في طرقاتها صمت الجلال
والنبع، والشلال أغنية انسياب، وانسيال
والبعض أزمعن الرحيل إلى السماء، مع الجبال
غسلت شموسك جوهن، وغمست شفة الرمال
تحنو الوراد على نوا فذها، وتتكئ الدوالي
فترى الهلال من الخلا ل، وتارة نصف الهلال

* * *

السامرون على المو اقد، والحكايات الطوال
وعن الزروع، عن الكروم، عن الخراف، عن السخال
عمل شريف، يفرقو ن به وجودهم المثالي
عيش أحب — على بسا طته — وأقرب للكمال
أغنى الورى.. لكن بما ورثوه من شرف الخصال
أنت الغني.. لأن حقلك عاطر النفحات، حالي

* * *

ونساؤهم... ألق يدل به الجمال على الجمال
يعثرن بالنظرات ترصد خطوهن، وبالدلال
يسمعن همس القلب يستوقفن طارقة الخيال
الصانعات — على أنو ثتهن — بعض غد الرجال
نزه العيون، ولا أدل، بما أقول، ولا أغالي
ليت العيون — وقد شبعن من الملاحة — ليتها لي
لهف كأعمق ما يكون، وفوق فوق الاحتمال
وأعز من نيل المحا ل، ونيل ما بعد المحال

* * *

هذي البقية، بعض ما أبقى الصراع مع الليالي
الحاملون على الشفا ه قلوبهم عند السؤال
يا رب: أنت بناظري، وفي فمي فوح ابتهال
أترع جفونهم بأحلام البيادر، والغلال
واجعل نجومك في قطاف كرومهم فرح السلال
واملأ شتاءهم، وصيفهم، بدفئك، والظلال
وازرع مكان الذل فو ق جباههم كبر التعالي
ليرى الأمير — إذا تلفت عبده — لفت اختيال
في الأرض، أرضهم السلا م، ومجد مجدك في الأعالي

حامد حسن



* شعر: شوقي بغدادي

ها عاد المَيْتُ ، فدقّ عليّ   البابَ ، وصاحَ : لقد عدتُ

الصوتُ غريبٌ لكنّي   في مثل اللمحِ تذكّرتُ

أعرفه ، أعرِفُ غُنّتَه   فبأعمق أعماقي الصوتُ

لم أفتحْ من لهفي فوراً   فأمام البابِ ترنّحتُ

المقبض أفلت من كفّي   وعيوني غامت ، فوقفتُ

أتصوّرُ ماذا أرجعَهَا   فالحبُّ تخطّفَهُ الموتُ

والأرضُ ارتدّتْ باردةً   والقبرُ تغشّاه النّبْتُ

وفتحتُ البابَ ... فياوجهاً   لايُنسى ، كيف تصوّرتُ

يا رفّة جفنٍ أعبُدُها   وتقلّصَ شفةٍ مزّقتُ

يا معطَفَهَا يُرمى كالأمس   كأنْ ماغيّرها الوقتُ

يا عيناً يضحكُ بؤبؤها   مهما أطرقتُ ، وقطّبتُ

تسألني ، تقرأ في ورقي   وتبعثرُ كتباً رتّبتُ

فإذا صمتتْ ، رَفَعَتْ وجهاً   لم يُطفىء بهجتَه الصمتُ

لم تستغفرني ، لكنّي   من قبلِ الغفرانِ غفرتُ

أشياؤك ما زالت ترجو   عودَتكِ إليها يا أُختُ

المقعدُ يهفو ، والشبّاك   وبابُ الغرفةِ ، والبيتُ

أشياءٌ تتغيّرُ دوماً   إلاّ شيئاً ما غيّرتُ

قلب يُرجعها ويراها   مهما غيّرتُ وبدّلتُ

معجزةٌ تمّتْ وانتصرت   أن يحيا ويعودَ المَيْتُ

التنقيح في الأدب

بقلم عيسى فتوح

كنت لا ازال في فجر حياتي الادبيـة ، اتلمس الدرب ، وامشي بخطى حذرة ولكنها سريعة ، عندما دخلت ادارة احدى الصحف اليومية لادفع بانتاجي ، فالتقيت هناك بالمشرف على الصفحة الادبية وهو دكتور في الآداب ومؤلف واستاذ في الجامعة ، ادركته حرفة الادب ، فاصبحت لديه حصيلة من التجارب والوان من المعاناة ... احب ان يسدي اليَّ نصائحه الادبية ويزودني بوصاياه القيمة التي احتاجها في ممارستي الكتابة حتما .

ولا غرو فمن قبل نصح ابو تمام تلميذه البحتري ، وقدم اليه ثمرة خبرته وخبرة آخرين من دونه فطبق البحتري الوصية وتقيد بها ففاق استاذه واربى عليه.. وفي العصر الحديث سادت مثل هذه الوصايا وانتشرت في آثار المفكرين والشعراء ، فكتب امين الريحاني عشر وصايا في كراسة « انتم الشعراء » ومثله فعل احمد الصافي النجفي في كتابه « هزل وجد » وقـد توخيا فيها التركيز والدقة ، والتكثيف .

ولكي لا ابعد اقول : ان صاحبي قد اراد لي كل الخير عندما سألني هـذا السؤال : هل تنقح عملك الادبي او تتركه غفلا ؟ فقلت له : ان ما بين يديك يـا سيدي هو المسودة والمبيضة بآن واحد ! ... مـا حاجتي لاعادة الكتابة اذا كنت لا اشطب كلمة ولا استبدل عبارة باخرى ، ولا اعدل عن فكرة ! ... انني مقتنع بكل ما اكتب ، راض عنه ، مرتاح اليه ، والمس اليسر في الكتابـة لا العسر ... احس بـأن الكلمات تتدفق علي تدفق السيل ، فاقف قليلا لاختار الاجمل والانسب والاصلح ... يعيد الكتابة مـن يتلكأ ويضطرب ويتعثر ... من لا يخرج اللفظة الا بعد مخاض طويل ، وعراك معها لا يهدأ ...

كنت اتكلم بكثير من الثقة والاعتداد ، ثقـة الشاب الدائب الطموح واعتداد الفتى الغرير ، لم تصقله التجربة بعد ، ولم تشذ به السنون .. وصاحبي الشيخ الجليل يصغي ويبتسم لهذه الحماسة التـي تغلف كلماتي ويقاطعني من حين لآخر قائلا : انك يابني تمثل نفس الدور الذي مثلته من قبلك ، ومثله الآلاف من الكتاب الذين قدر لادبهم ان يحيا ... اتئد يا بني فليس وعيك الذي يتكلم ، وانما عاطفتك المضطرمة وحسك الملتهب واعصابك التي تحمل كل قلق العصر وتوتره ، وطيشه ، ونزقه .

انك ان تحمل في عروقك حكمة الشيوخ ، وادراك العقلاء وهدوء المفكرين ، وانت على ما انت عليـه تأتك الشهرة منقادة سريعة ، ولكن انى للنقيضين ان يجتمعا ، وللضدين ان يترافقا ؟ .

هوِّن عليك ولا تكن عجولا ... فالمستقبل كفيل بان ينضج الثمرة الفجة ويحيلها سكرا حلو المذاق . قال ذلك لانه كان يرى تسرعي في العطاء ... كـل يوم آتيه بجديد اتصدى لاضخم الموضوعات واعقدها واعوصها غير عابىء بقول النقاد الذين لا تعجبهم هذه العفوية والبداهة ، ولا يروقهم هذا التخفف والارتجال كانوا يطلبون مني ان اغربل وامحص ما اكتب ، ولا اخرجه للناس الا منقحا مثقفا ، مصقولا ... ومـن يومها ادركت قيمة الصناعة في العمل الادبي ، ورحت

ولا هم لي ، الا التجويد والتحكيك واعادة النظر فيما اكتب حريصا كل الحرص على تنقيته ونقده قبل ان ادفعه للقراء ••• صرت ناقد نفسي ، اضيّق عليها ما وسعني التضييق ، واعتقد انه لو فعل كل كاتب هذا الفعل لاسكت النقاد ، واستراح من تمحلهم وتنقيرهم على كل جزئية قد لا يعيرها كبير اهتمام •

عرف التنقيح فيما مضى باسم التثقيف ، والتثقيف في اللغة معناه التقويم ••• تقول : ثقّف الرمح أي قومه اذا كان معوجا ، والمثقّف (بكسر القاف) في الاصل هو الرجل الذي يتولى اصلاح الرماح والسيوف وربما اشتقت منها كلمة الثقافة لان فيها معنى اصلاح ا لخلق وصقل الادراك وتهذيب السلوك ، وتقويم الفكر ، وتشذيب النفس •

ثم تطور مفهوم لفظة التثقيف ، وان بقي شديد الصلة بالاصل المادي الذي اشتقت منه ، فالتثقيف اليوم نلمس آثاره في الانسان ولا نرى منه تلك العملية اليدوية التي كان يجريها العربي الجاهلي في ساعات الفراغ ، استعدادا للحرب التي ما كان يخمد لها اوار ••• وهكذا خرج المعنى الى التثقيف تقريبا ، فالثقافة الفكرية الحقيقية ، تنفي وجود الحرب ، وتعمل على اقلالها ومن ثم تعطيلها • وارى — كما يرى غيري — ان الفرد المثقف ثقافة واعية لا يملك روحا ثورية تجره لخوض المعامع ••• بل على العكس تفتح عينيه على العواقب الوخيمة التي تورثها •

وما دام العربي الجاهلي يولي الشعر اهتماما لا يقل عن الاهتمام بالحرب ، فلمَ لا يمنح آلة الشعر عناية آلة الحرب ؟ ••• والشعر والحرب صنوان لا يفترقان ••• الشعر رفيق العربي في المعركة ، تماما كسيفه ورمحه وقوسه ونشابه ••• يرجز اذا ما شاء الكسر ، فيزيده الرجز حماسة وقوة • وشعر الحرب هو الذي بقي لنا في الياذة هوميروس ، في انتصارات سيف الدولة ، في فتوح المعتصم •

هذه الصلة الوثيقة بين الشعر والحرب — كما قلت — ادت الى العناية بهما على مستوى واحد ، حتى اعتبر النقاد اهل الصناعة والتجويد من عبيد الشعر•• ولم تزل عبارة الاصمعي تملأ كتب الادب « زهير والحطيئة » وامثالهما من الشعراء ، من عبيد الشعر لانهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين •

وقد علّق ابن قتيبة في مقدمة كتابه — الشعر والشعراء — على هذه العبارة فاعتبر كل منقح متكلفا ، والحقيقة غير ذلك ، لان الشاعر حتى الشاعر المطبوع لا يخلو من عودة الى عمله ولو عابرة ••• الشاعر والاديب كالبستاني الذي يدخل الحديقة فيشذب غصنا هنا ، ويصل واحدا بآخر هناك او كمن يجمع باقة من الازهار ليهديها ••• يختار اللون الاحمر لمن يحب والابيض لمن يصادق ، والبنفسجي لمن يحترم ••• ولعل زهير كان اكثر الشعراء فهما لحقيقة الشعر ••• ينقحه ، ويحككه ولا يخرجه الا بعد ان يمضي عليه حول كامل ••• حتى سمي بصاحب الحوليات ينظم القصيدة في اربعة اشهر وينقحها في اربعة اخرى ويعرضها على الناس من اهل الفهم في الاربعة الاخيرة•• لانه يعتقد ان ولادة القصيدة تحتاج الى جهد فكري وكد وتعب هو نفس الجهد والكد والتعب الذي تعانيه المرأة اثناء عملية الولادة وان اختلف في نوعيته •

لقد خرج التثقيف من حيّز الفرد الى حيز الجماعة عندما طفق كل شاعر يبحث عن مثله الاعلى في الشعر يتتلمذ عليه ، ويروي شعره ويتأثر خطاه ، ويقلده في طريقة النظم ••• حتى كانت مدرسة اوس بن حجر التي منها زهير والحطيئة وكعب بن زهير من يشرح دستورها ويعلن عن هدفها في قوله :

فمن للقوافي شأنها من يحوكها
اذا ما ثوى كعب وفوّز جرول

نثقفها حتى تلين مقونها
ويقصر عنها كل ما يتمثل

كفيتك لا تلقى من الناس شاعرا

تنخل منهـا مثل مـا اتنخـل

وهذا ابو حفص المطوعي ينصح من يزاول صناعة القريض فيقول :

لا تعرضنَّ على الانـام قصيـدةً

مـا لم تكـن بالغت في تهذيبهـا

واذا عرضت الشعر غـير مهذب

عدوه منك وساوسا تهذي بهـا

وعلى كل حال فالتنقيح عملية اساسية وضرورية في الادب ، لكنها تزيد في الشعر عنها في النثر لان في الشعر مجالا واسعا للالهام واللا وعي بعكس النثر الذي هو وليد الفكر والوعي وادراك والمنطق • في الشعر يغيب الرقيب ، وفي النثر يجلس في برجهليلاحظ وينبـه ويشير ••• فالعمليـة اذا لا تملك الاطراد والديمومة ••• بل تتعرض للتقطـع ••• والشعور متيقظ دوما ، حذر ••• كل شيء يجري باشرافـه وتحت عيانه ، لذلك تخف عملية التنقيح ، بينما ترتفع في الشعر الى الذروة •

ولقد ادرك جرجي زيدان هذا عندما عرَّف الشعر بانـه « من اعلى طبقـات الكلام وابعدها غاية ، لما يقتضيه من شرف الالفاظ ، ونباهة المعاني ، وسلامـة الذوق ، والمبالغة في التنقيح والتهذيب » فهو كمـا نرى لم يكتف بالتنقيح والتهذيب فحسب بل اشار الى الاسترسال والمبالغة فيهما •

واسبق تطور البحث فاقول : ان التنقيح عملية شخصية بحتة فكأي من شاعر يترك شعره غفلا ، يشق عليه ان يعود الى ما كتب كبرياءً وغطرسة وتبجحا ، بالرغم من ضعفه والتواء قلمه • وشاعر ينقدٍ حتى نثره ورسائله التي يبعثها لاصدقائه ، فقد عثر بين اوراق جبران على اربع مسودات لرسالة كتبها الى مي زيادة وجبران امير زمانه بيانا وعبقرية •• كما عدوا سبع روايات لجملةواحدة كتبها شاتوبريان، وسبع مسودات لجملة واحدة في كتابه (الليلة الاميركية) ويرى بعضهم ان هناك روايات اخرى غيرها ! ولعله ابقاها للاجيال اللاحقة لتدلهم على طرق التنقيح •

ومهما يكن من امر فالادباء الشباب يظلون اكثر حرصا وتدقيقا في ما يكتبون من شعر او نثر نظـرا لقلة تمرسهم وعدم تمكنهم وضيق اطلاعهم وخوفهم من عبث النقاد في بداية الطريق ••• وارى ان عملية الصقل يجب ان ترافق الكاتب ما دام يكتب ••• ولا بأس ان تضمر في النهاية ، امـا ان تتوقف فشيء لا نقره ابدا •

ثمة شعراء كبـار استسلموا الى اشهرة وغيرهم المجد العريض فاستناموا وملوا الصقل والتجويـد فكانت النتيجة ان هبط انتاجهم وسف حتى سقط الى الحضيض ، مخدوعين باعتقادهم ان الشعراء اعتادوا ان يتهافتوا على كل ما تخرجه المطابع حاملا اسماءهم المضيئة •

الكاتب الذي يحترم نفسه لا يفتر عن الصقل والتجويد والتنقيح قليلا او كثيرا ، الى ان يرضي نفسه ويشعر بالاطمئنان الكلي ••• سئل الكاتب الانكليزي الشهـير الدوس هكسلي ما اذا كـان يهتم بالتنقيح فاجاب : « بصورة عامة اكتب كل شيء عددا كبيرا من المرات • جميع الافكار التي تظهر في كتاباتي هي افكار لم تأتني عندما كتبت ما كتبت للمرة الاولى » •

اما همنغواي فكان يكتب في بطء شديد ويراجع ما يكتب مرات ومرات حتى انه ــ كما يروي عـن نفسه ــ راجع الصفحة الاخيرة من قصته « وداعـا

للسلاح » تسعا وثلاثين مرة ...

وقبل ان يسلم قصة « الشيخ والبحر » للمطبعة قرأها مئتي مرة .. وكان باسكال وشاتوبريان يعيدان الصفحة خمس عشرة مرة ، وظل كورني ينقح حتى آخر لحظة في حياته ... ويروى عن راسين انه كان يصحح ويهذب ، ولا يخرج مسرحياته دون تنقيح ، الا ان تصحيحاته كانت نقصا لازيادة ومحوا لااضافة.

ويقول بوالو : « اعد عملك عشرين مرة بهدوء وروية ، هذبه ونقحه ، ولا تفتر عن تهذيبه ، أضف اليه احيانا واختصر منه غالبا » .

ويقول كوينتليان « هذب بشفرتك العمل الادبي ولكن لا تفسدنه ولا تذهبن معالمه لان هناك روحا يجب ان تتحقق في كل بيت وكل كلمة من كلمات القصة والا كنت تكتب وانت غيرك في المرة التي تصحح فيها وتهذب ومن الضروري في التنقيح ان تبقى انت بنفسك وبروحك » .

ويقول احمد الصافي النجفي « على الشاعر الحر ان يكمل انينه ويفرغ حنينه ، ويكمل شكواه ويتم رسالته حتى اذا افرغ ما في نفسه ، انقطع عن النشيد كما ينقطع السيل عند انتهائه وهدأ كما يهدأ البركان عندما تنفذ حممه اوينطفيءاواره اما الصنعةوالاسلوب وانتقاد الالفاظ فتلك امور يجب على الشاعر ان يفكر فيها بعد انتهائه من شرح هواجسه وبث وساوسه وافراغ رغباته وتكميل شكاياته ، وحينئذ يعمد الى اصلاح كلمة او تحسين اسلوب او ابدال لفظة باحسن منها واوقع في السمع ، بشرط الا يخل ذلك الابدال والاصلاح اللفظي ببنيان تلك الهواجس الطبيعية التي جاءت مرسلة متدفقة أثناء التنظيم » .

ولو دققنا في الاقوال السابقة لرأينا أكثرها يصر على الحذف والنقص دون الزيادة والاضافة ... فلماذا كان الحذف افضل ؟ وفي الجواب نقول : قد تكون الافكار عن النظم هائجة ، مضطربة ولا تصور حقيقة الشعور اما في النقصان فاننا نخضع لمقياس منطقي معقول وخاصة عندما نشعر ان العاطفة غالت وامعنت في المبالغة واسرفت في التنقيح فيأتي البتر خير علاج لذلك .

بالاجمال فيجب أن نعرف متى يحسن أن ننقح أو نمسك عن التنقيح ، فكم تفقد الفكرة قوتها والصورة لونها والاسلوب حركته عندما نسترسل في التنقيح .. ولعل لافونتين أراد هذا عندما قال : « ان الاديب ليفسر كل شيء عندما يسرف في الاتقان والتجويد » .

عيسى فتوح ـ دمشق

★ ★ ★

وصول وفد دولة الكويت

للاشتراك في معرض دمشق الدولي الحادي عشر

قدم من الكويت اليوم الوفد الذي سيشرف على اعداد جناح دولة الكويت في معرض دمشق الدولي الحادي عشر برئاسة السيد فهد الصرعاوي الذي اشرف على اعداد عدد كبير من المعارض الدولية من التي اشتركت بها الدولة الشقيقة ، ويرافقه الاستاذ عدنان دعدوش المساعد الفني للاشراف على اعمال هذا الجناح .

« والثقافة » ترحب بالسيد الصرعاوي وصحبه الاكارم راجية لهم طيب الاقامة في دمشق .



خاتم الخطوبة

شعر ياسين فرجاني

لبست لميس «المحبسا» في ليلة لا تُنتسى
ألبيت بالأنوارِ ضاء وبالأزاهير اكتسى
والحفل أبهى ما يكون . . تأنقاً وتكيُّسا
عريت نحور الغانيات سوى قلائدها كسا
والحلي لف المفعمات من الزنود ، موسوسا
هاتيك تشتمل الحرير زهاً وتلك الأطلسا
وبراشق الالحاظ تحتضن القدود تفرسا
وفم على اذن يميل ، صغت إليه ليهمسا
في معرض أمن الجمالُ فما يشيم توجسا
وإلى جوار عروسه دُعي العريس فأُجلسا
نشوان ، جذلان الهوى من خمرة النصر احتسى
مدت له كفاً فألبسها ومدَّ فأُلبِسا
والأم لاتسطيع من فرحٍ طغى ان تنبسا
لن يُبخس الحسن البديع سعادة ، لن يُبخسا

* * *

الزورق الهيمان فوق الشط مشغوفاً رسا
في المرفأ العاجيِّ ألقى عبأه وتنفَّسا
من حول اصبعها انحنى فلك الهوى وتقوَّسا
يزدان بالغالي الكريم وبالنفيس ملبَّسا
زنار أحلام يطوِّق مخملياً أملسا
يصحو على طيَّاته شمَّاً ويغفو ملمسا
قرت به صعب المنال رمى القياد وأسلسا
وزهت على أترابها حظَّاً وباهت ملبسا
أولى ، وأغلى أُمنيات العمر في دنيا النسا

* * *

من للملاح بمثل ماوُهبت إذا حظ قسا
بكر الشباب فأورقت غرساً وطابت مغرسا
وتفتحت زهراً ورفَّت في الخميلة نرجسا
ومن الثمار مكوَّزاً حمل القوام مروَّسا
ومورداً ومذهَّباً ومكحَّلا وملعَّسا

* * *

يا للغيارى يستبقن – إذا تكون – المجلسا
أشهى الحديث من الصباح على القلوب إلى المسا
تحكي لهن ويستعدن المستفيض المؤنسا
منذ اللقاء تعرُّفاً فتقبُّلا فتمرُّسا
أمل تعلق بالجفون يرد عنهنَّ الأسى
حتى إذا ما الليل أرخى جانحيه وعسعسا
وارفضَّ عقد السامرات وقد أثار الأنفسا
بات العذارى في لعلَّ على الرجاء وفي عسى

اربعاء الرماد

شعر: ت. س. اليوت

ترجمة: محمد ابو خضور

- ١ -

لأني أعيش بلا أمل في تحول جديد
لأني أعيش بلا أمل
لأني أعيش بلا أمل في تحول
لأني أطمع في نبوغ هذا وفي شمول ذاك
فإني لم أعد أكابد لأكابد لبلوغ هذه المنى
(ففيم يبسط النسر العجوز جناحيه ؟)
وفيم أندب
زوال السلطان عن المجد الزمني ؟
لأني أعيش بلاأمل في أن أذوق من جديد
المجد الزائل ، مجد الزمان الايجابي ،
لأني لا أفكر ،
لأني أعرف أني لن أعرف
السلطان الوحيد الحقيقي الزائل
لأني لا أستطيع أن أرتوي هناك
حيث تزهر الاشجار وتجري الينابيع ، فما من شيء سيتكرر
لأني أعرف أن الزمان دائماً زمان
وان المكان دائماً مكان ولا شيء غير مكان ،
وأن الفعل فعلي لزمان واحد فقط ،
وفقط لمكان واحد ،
فأنا أبتهج لأن الاشياء على ما هي عليه ،
وأقطع الأمل من رؤية الوجه المبارك ،
وأقطع الأمل من سماع الصوت ،
ولأني أعيش بلا أمل في تحول جديد ،
فأنا بالتالي أبتهج ، ولا بد لي من إقامة شيء
أبني عليه ابتهاجي ،
وأصلي الى الله أن يتغمدنا برحمته ،
وأضرع إليه أن ينسيني
هذه الأمور التي أناقشها مع نفسي في اسراف ،
وأفسرها في اسراف .
ولأني أعيش بلا أمل في تحول جديد
فلتكفر هذه الكلمات
عما قدمت يداي ، ولتكن آية توبتي فلا أعود لمثله ،
رب لا تجعل دنيونتنا أثقل مما نتحمل
ولأن هذين الجناحين لا يصلحان للطيران
ولكن عادا مجرد مروحة تضرب الهواء ،
الهواء الذي غدا الآن ضئيلا وجافاً ،
أضأل وأجف من الارادة
رب ألهمنا أن نبالي ولا نبالي ،
رب رب ألهمنا ألا نتململ في جلستنا .

- ٢ -

أي سيدتي ، ثلاثة فهود بيض جلست تحت شجرة الدفران
في طراوة النهار ، وقد أكلت حتى تخمت ،
من ساقي وقلبي وكبدي ومما كان مختزنا
في جمجمتي المستديرة الفارغة ، وقال الله :
أبخي هذه العظام ؟ أيخي هذه العظام
وما كان مختزنا في العظام
(وقد جفت الآن) قال وهو يصدح
إنما نضيء ونتألق
لطيبة هذه السيدة
ولبهائهـا
ولأنها تكير للعذراء في تهجدها .
وأنا الستخفي هنا
أهب أعمالي للنسيان ، وأهب حبي
لبني اليباب ولثمار الحنظل
وهذا ما ينقذ
أحشائي وأوتار عيني وما لا يمكن هضمه من جسدي
فتلفظه الفهود ، والسيدة قد اختلت
في إزار أبيض ، لتتهجد ، في إزار أبيض
فليكفر بياض العظام حتى النسيان
فما في العظام حياة ، فما دمت منسياً ،
وما دمت سأنس ، فإني سأنس
وأنا في هذا متفان مركز على هدفي .
وأوحى الله للريح نبوءته ، للريح وحدها ،
فما غير الريح يسمع ، وغنت العظام صداحة
أغنية الجندب قائلة :
أي سيدة اللحظات الصامتة ،
أيتها الهادئة ، أيتها المكلومة ،
يا ممزقة ، يا أكمل ما يكون ،
يا وردة الذكرى ،
يا وردة النسيان ،
ناضبة أنت ، واهبة الحياة ،
مهمومة ، قريرة العين ،
الوردة الوحيدة

غدت الآن الحديقة :
منتهى كل حب
ونهاية الآلام :
آلام الحب الجائع ،
وما هو أقسى ،
آلام الحب الشبعان ،
نهاية اللا متناهي ،
سفر بلا نهاية ،
ختام كل ما لا
يعرف له ختام .
حديث بلا كلمة
وكلمة بلا حديث .
مباركة هي الأم
من أجل الحديقة
حيث ينتهي كل حب .
تحت شجرة الدفران غنت العظام، مبعثرة وضاءة تقول:
جميل أن نبعثر، فما كان فينا خير كثير بعضنا البعض.
جميل أن نبعثر
تحت شجرة في طراوة النهار، وقد باركت العظام الرمال،
فهي لاهية عن نفسها ، لاهية بعضها عن بعضها ،
وقد توحدت في هداوء الصحراء .
ها هي ذي الأرض التي ستقتسمونها بالقرعة .
لا القسمة تهم ولا الوحدة تهم
ها هي ذي الأرض :
فلنا ميراثنا .

- ٣ -

عند المنعطف الأول في السلم الثاني
تلفت ورأيت تحتي
نفس الشبح ملتوياً على حاجز السلم
تحت البخار في الهواء العفن ،
يصارع شيطان السلم ،
صاحب الوجه الزائف ،
وجه الأمل واليأس .
عند المنعطف الثاني في السلم الثاني
تركت الأشباح تتلوى ، وتدور تحتي .
اختفت الوجوه وكان السلم مظلماً ،
رطبا، متعرج الأسنان كفم عجوز يتساقط لعابه بلا ضابط
أو كحلقوم سمكة عجوز من سمك القرش به أسنان .
عند المنعطف الأول في السلم الثالث
رأيت نافذة مشقوقة منتفخة كالتينة .
ووراء أزهار الفصة والمراعي
رأيت ذا الظهر العريض في رداء أزرق وأخضر
يسحر الربيع بناي قديم .
الشعر المهفهف حلو ، الشعر الأسود المنثور على الفم
السوسن والشعر الأسود ،
اللب المخلوب ، أنغام الناي ، سلم العقل ودرجاته على السلم الثالث
كسلم الناي ودرجاته ،
تتلاش ، تتلاش : قوة أقوى من الرجاء واليأس
ترتقي السلم الثالث .
يارب لست أهلاً لذلك .
يارب لست أهلاً لذلك .
لكن قل الكلمة وحدها .

- ٤ -

تلك التي مشت بين البنفسجة والبنفسجة ،
تلك التي مشت بين
مختلف درجات الخضرة المختلفة
وهي في بزة بيضاء وزرقاء ، في ألوان مريم ،
متحدثة في توافه الأمور ،
جاهلة وعارفة بالألم السرمدي ،
تلك التي سرت بين الآخرين وهم سائرون ،
ثم فجرت النوافير بقوة ، وجعلت الينابيع تجري بعذب المياه ،
ورطبت الصخر اليابس ، وثبتت حصى الرمال
في زرقة نبات العايق ، في زرقة لون مريم ،
هنا السنين التي تمشي في المنتصف
حاملة معها القيثار والناي
راجعة بتلك التي تسير فيما بين النوم والصحو
ورداؤها من النور الأبيض ذي الأطواء
يلتف كالغمد حولها بالأطواء .
تمشي السنين الجديدة ، وترجع إلينا السنين
من خلال سحابة وضاءة من الدموع ،
وتعيد إلينا الشعر القديم لمستجدات الأوزان ،
ترد إلينا الزمن . ترد إلينا
الرؤيا التي لم تفك طلاسمها في الحلم الأعلى ،
على حين تجر وحدان القرن المرصعة بالجواهر النعش المذهب .
الأخت الصامتة أطرقت برأسها ،
وأومأت ولم تفه بكلمة ،
مقنعة بالأبيض والأزرق
بين أشجار السرو وخلف إله الحديقة
ذي الناي اللاهث ،
ولكن النافورة انبثقت ، والطائر غنى بصوت خفيض :
رد الزمن ، رد الحلم ،

رمز الكلمة التي لم تسمع ولم تنطق
حتى تهز الريح شجرة السرو
فتتساقط منها ألف همسة
وبعد هذا نفينا
لو ضاعت الكلمة الضائعة ، لو تبددت الكلمة المبددة ،
لو كانت الكلمة غير المسموعة ولا المنطوقة
غير منطوقة ولا مسموعة ،
لبقيت رغم ذلك الكلمة غير المنطوقة،الكلمةغير المسموعة.
الكلمة بغير كلمة ، الكلمة في ثنايا العالم ومن أجل العالم.
والنور أضاء في الظلام ،
وما زال العالم الذي لم يسكن صخبه
يدور حول محور الكلمة الصامتة
ثائرا على الكلمة .
آه يا قومي ، ماذا جنيت عليكم
أين مكان الكلمة ، وأين يجلجل صوتها :
ليس هنا ، فما هنا صمت كاف .
ليس في البحار ولا في الجزر ولا في أرض الساحل ،
ليس في الصحراء القواء ولا في أرض الامطار ،
فما هنا الزمان المناسب ولا هنا المكان المناسب
لمن يمشون في الظلام
سواء بالليل أو النهار ،
وما هنا مكان النغمة لمن يتجنبون مواجهة الوجه ،
وما هنا زمان الغبطة لمن يمشون وسط الضجيج
وينكرون الصوت ،
الاخت المحجبة ، ترى هل تصلي
من اجل من يمشون في الظلام ،
من اجل من اختاروك ومجدوك ،
من أجل من تمزقوا على القرن بين الموسم والموسم ،بين
الوقت والوقت ،
بين الساعة والساعة ، بين الكلمة والكلمة ، بين القوة
والقوة ،
من أجل من ينتظرون في الظلام ،
الاخت المحجبة ، ترى هل تصلي ،
من أجل الاطفال الواقفين بالباب ،
لاينصرفون ولا يقدرون على الصلاة ،
ترى هل تصلي من أجل من اختاروك ومجدوك ؟
آه ياقومي ، ماذا جنيت عليكم ،
الاخت المحجبة بين أشجار السرو الناحلة
ترى هل تصلي من أجل يشنؤونها
وينتابهم الزعر ولكن لا يسلمون ،
من أجل من يؤمنون أمام العالم ويكفرون بين الصخور
في اليباب الاخير ، بين آخر صخور زرقاء ،

اليباب في الحديقة ، الحديقة في اليباب ، يباب الجفاف ،
وهم يبصقون من أفواههم بذور التفاح الذابل ؟
آه ياقومي .
ولو أني أعيش بلا أمل في تحول جديد
ولو أني أعيش بلا أمل
ولو أني أعيش بلا أمل في تحول
متأرجحاً بين الكسب والخسارة
في هذا المعبر الوجيز حيث تعبر الاحلام
هذا الفسق معبر الاحلام بين الميلاد والممات ،
(باركني يا أبتاه) ،
ولو أني لا أريد أن أريد هذه الاشياء ،
فالقلوع البيضاء لا تزال تمخر صوب البحر
من النافذة الواسعة صوب شط الجيرانيت ،
صوب البحر تمخر أجنحة غير كبيرة ،
والقلب الضائع يجمد ويبتهج ،
للسوسن الضائع ولاصوات البحر الضائعة
وتنتعش الروح الضعيفة لتتمرد
من أجل القضيب الذهبي الذي انثنى
من أجل رائحة البحر التي ضاعت
تنتعش لتسترجع
صرخة السمان والزرقزاق العنيف الدوران ،
والعين الضريرة تخلق
الاشكال الخاوية بين الابواب العاجية
وتجدد الرائحة المذاق المالح ، مذاق الارض الرملية ،
هذا أوان الصراع بين الموت والميلاد ،
هذا مكان العزلة حيث تمر احلام ثلاثة
بين الصخور الزرقاء ،
ولكن عندما تتلاشى الاصوات
المتساقطة من شجرة السرو المهتزه ،
فلتهتز شجرة السرو الاخرى ، ولتجب قائلة :
أيتها الاخت المباركة ، أيتها الام المقدسة ،
ياروح النافورة ، ياروح الحديقة ،
لا تذرينا نخدع بالزيف أنفسنا ،
ألهمينا أن نبالي ولا نبالي ،
ألهمينا الا نتململ في جلستنا ،
حتى بين هذه الصخور
سلامنا رهن مشيئته ،
وحتى بين هذه الصخور ،
يا أختاه ، ويا أماه ،
ياروح النهر ، وياسر العباب ،
لا تذريني أبتعد ،
ودعي صرختي تبلغ اليك ،

صفحات مشرقة

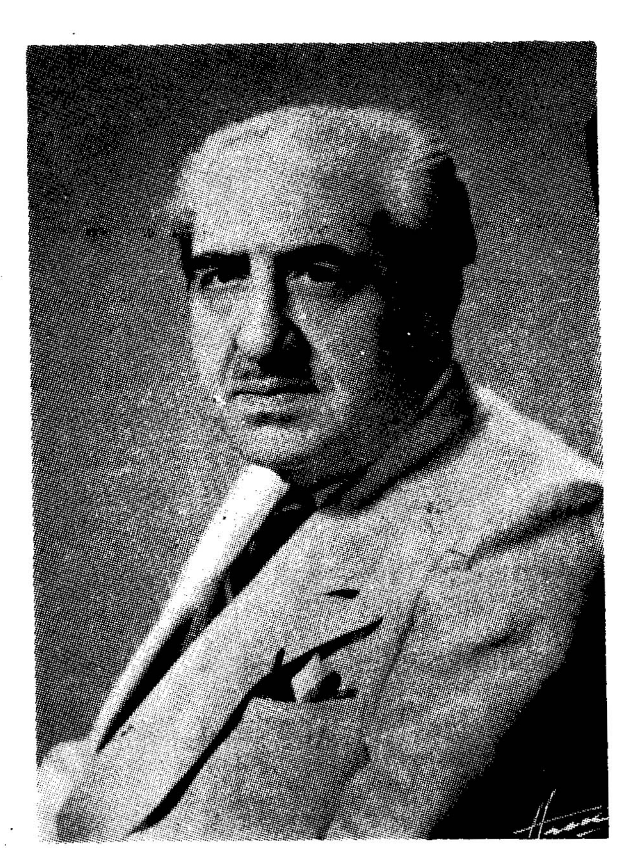
من حياة خليل مردم بك ... وتراثه

بقلم: جان الكسان

في اليوم الحادي والعشرين من تموز عام ١٩٥٩ ،مات في دمشق رجل عظيم ، فهرع الرفاق يحملون جثمانه على الاكف ليسجى في القاعة الرئيسية ببناء المجمع العلمي العربي حيث جرت مراسيم وداع الرئيس المفكر ، والبحاثة الكبير ، والشاعر الفذ ، خليل مردم بك ، الرجل الذي كان في مكان القدوة من قادة الفكر ، والذي وضع لسورية نشيدها الوطني تصدح به الحناجر كل صباح ..

مات الخليل عن تراث قيم ، مخطوط ومطبوع ، فيه ديوان الشعر وسلسلة من الدراسات عن ائمة الادب (الجاحظ ـ ابن المقفع ـ ابن العميد ـ الصاحب ـ الفرزدق) ، وعن مقالات وبحوث في الادب واللغة والنقد نشرت في مجلات المجمع والثقافة والرابطة الادبية وغيرها ، كما حقق دواوين : ابن عنين الدمشقي وعلي بن الجهم ، وابن حيّوس ، وابن الخياط ، اما ترجمة حياته فتقول انه من مواليد دمشق لعام ١٨٩٥ ، اسس فيها مع فريق من الادباء جمعية (الرابطة الادبية) التي اصدرت مجلة باسمها عام ١٩٢١ ، وانتخب عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٩٢٥ ، وفي عام ١٩٣٣ أصدر مجلة الثقافة مع الدكاترة : جميل صليبا وكاظم الداغستاني وكامل عياد ، وانتخب امينا لسر المجمع عام ١٩٤٤ وعضوا في عدة مجامع عربية واجنبية، كما تولى مناصب وزارية وديبلوماسية اكثر من مرة ، واخيرا انتخب رئيسا للمجمع العلمي العربي بدمشق منذ عام ١٩٥٣ وحتى وفاته ..

فحياة خليل مردم بك تاريخ حافل ، وصورة جليلة تنتصب امامنا في حقيقتها وصفائها وتجردها المثالي كلما اثارتها الذكرى او قضت باستحضارها دواعي الظروف والمناسبات ...



المرحوم خليل مردم بك

يبدأ السيرة الاستاذ الامير مصطفى الشهابي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق حاليا فيحدثنا عن الخليل الراحل ويقول :

عرفت اسمه منذ سنة ١٩١٣ ، يوم كنت طالبا أشارك في المؤتمر العربي الاول الذي عقد في باريس لمطالبة الدولة العثمانية برد حقوق العرب المهضومة

اليهم ، فقداستدعاني شهيدالعروبة ، عبدالغني العريسي، وكان آنذاك امين سر المؤتمر ، وقال لي : « وردتنا اليوم من دمشق برقية تأييد عليها تواقيع منوه من اخواننا الوطنيين ومنهم اخي واخوك عارف الشهابي •• » • فأخذت البرقية وقرأت اسماءموقعيها، وكانوا خمسين وطنيا استأثرت المنية بمعظمهم ، واذا في جملتهم اسم خليل مردم بك •

وجعلنا نتساءل عمن يكون هذا الخليل ، فالوطنيون من آل مردم كانوا معروفين عندنا ، وكلهم اما اكبر منا سنا أو في سننا ، وحفظت هذا الاسم في ذاكرتي على ان القى صاحبه في دمشق ، ولكن الحرب العالمية الاولى كانت على الابواب ، وكانت جمعية (الاتحاد والترقي) قد صممت على اهتبال فرصة الحرب لو أد القومية العربية في مهدها ، فقتلت من عرفنا من رجالاتنا الابرار في عامي ١٩١٥ و ١٩١٦ واحتكرت المؤن تجويعا للناس وبعثرت شبان العرب المتعلمين هنا وهناك ، فلم ألق الخليل ا لافي اواخر سنة ١٩١٨ بعد ان زال ظل الدولة العثمانية عن ديار الشام •

سيد الكلمة في السن المبكرة

ويتابع الامير الشهابي حديثه فيقول : لما تعارفنا الفيت ان الخليل ــ على صغر سنه ــ قد فاقني في اطلاعه على لغتنا العربية وعلم آدابها ، ووجدت انه أقد مني على الكتابة بها • وكان من النادر في ذلك الزمن ان يجد المرء شابا في مقتبل العمر يكتب بالعربية في يسر وصحة وسلاسة ، فالدولة العثمانية كانت تنكر ان يكون للعرب كيان قومي ، وتأبى ان تكون لغة القرآن الكريم لغة رسمية في البلاد العربية التابعة لها • ولا شك في أن الشبان في ايامنا هذه سيدهشهم قولي ان لغة الضاد كانت تدرس بالتركية في المدارس االحكومية، وانه لولا بعض المدارس الاهلية اسلامية ومسيحية ، ولولا العادة القديمة في تلقي علوم اللغة والدين على العلماء في البيوت ا والمساجد ، لما وجدنا في ذلك الزمن كاتبا قادرا على تأليف كتاب عربي أو عل ى كتابة مقال في صحيفة عربية ••

كان الفتى المردمي اصغر سنا من ان يكون عضوا في ذلك المجمع ، ولكن الحكومة العربية لم يفتها انه يكتب الرسائل بعربية صحيحة وناصعة ، فعينته مميزا في ديوان الرسائل العامة ، يصحح منها مايرد الى الديوان وما يصدر عنه الى مختلف المصالح الحكومية • وكان يضمنا بناء واحد في دار الحكومة المعروفة امام بردى ، ولم يكن للحكومة بناء غيره • كان لنا في كل يوم لقاء ، فأسأله عن صحة بعض الجمل العربية ويسألني عن بعض المصطلحات الزراعية في ما كان يرد الى ديوان الرسائل العامة من انظمة وتعليمات مترجمة أومؤلفة بالعربية • وقد حل عضوا عاملا في المجمع العلمي العربي عام ١٩٢٥ ، وكان اصغر أعضائه سنا •• لقد كان الخليل وطنيا مخلصا لعروبته ، وشاعرا فذا ، واديبا تعمق في دراسة تاريخ آدابنا العربية ، وبحاثة حقق ونشر جملة من المخطوطات الفنية ،واداريا برزت مواهبه في الوزارة والسفارة ، وكاتبا فحلا لم يرعف قلمه ا لابخير العربية والعروبة •

الشاعر القومي

يقول الجاحظ : الشعر صياغة ، وضروب من النسج ، وجنس من التصوير ، فاذا صح قول الجاحظ فان الخليل كان شاعراً على ما وصف امام العربية : اتقن الصياغة ، وجوّد النسيج ، وبرع في التصوير••

وعلى فيض ما اعطى من القريض فان الملاحظة المميزة هي ان الخليل لم ينسلخ في شعره يوماً عن احداث امته وآلامها وكفاحها ، فعندما قسم المحتلون ديار الشام دولا هزيلة بتراء صاغ قصيدته (لوجه

الوحدة) وفيها يقول :

بلادنا ويد التقسيم تعلقها
كأنها رقعة يتنابها حلم
أكل حاضرة دار لمملكة
أبعاد ما بينهن الفتر والبَصَمُ ؟..
لمفحص من أفاحيص القطا حرج
حامت على سمته العقبان والرحم
أبقى وأوسع عند الظن من دول
يحصي مساوفهن الشبر والقدم

* وعندما سلب لواء اسكندرون صاح صيحة اليأس في قومه :

بني العروبة كم من صيحة ذهبت
لو يستثار بها الموتى اذن ثاروا
هنتم على كل شعب من تخاذلكم
شأن العبيد وباقي الناس أحرار

* ويلوي على فلسطين فيقول :

يا ليت شعري ماذا يستفزكم
حمى مباح واذلال وافقار
أرى الحجارة أحمى من انوفكم
كم أرسلت شررا بالقدح أحجار
اخوانكم في فلسطين تنالهم
بالسوء والعسف انياب واظفار

* وعندما أحرق الفرنسيون دمشق في ٢٩ أيار ١٩٤٥ صور الخليل كارثتها في قصيدته الشهيرة « يوم الفزع الاكبر » :

موج من النار لا تهدأ زواخره
يمده آخر ما ارتد وافده
وبل القذائف هطالا له مدد
والنار والنفط والتهديم رافده
ترى القباب به غرقى فتحسبها
سفناً تهادى ببحر ثار راعده
في ذمة الله والتاريخ ما لقيت
وفي سبيل الاماني ما تصاعده
أمسى الذي كان في جناتها بهجاً
بمارج من سعير فار واقده
النار من فوقه والنار دائرة
به فان فرَّ أردته رواصده
في كل زواية رام ومن نفروا
شيباً وحوراً واطفالاً طرائده
ورب مكنونة كالدر ضن به
على العيون فصانته نواضده
تخطت النار ليلاً وهي حاملة
طفلاً قضى برصاص القوم والده
فما تناءت به حتى اتيح له
شظية بان منها عنه ساعده
ضمت الى صدرها شلواً يسيل دماً
كالطير هاض جناحاً منه صائده
يا هول ذلك من مرأى شهدت وقد
وددت لو كنت اعمى لا اشاهده

شاعر الوجدان

* ورغما من هذا التعاطف اللاصق مع احداث الوطن ، كان الخليل كثيراً ما يخلو الى حياة داخلية تأملية ، فيقيم الحدود بينه وبين اهل الدنيا ويطلق القريض مودعا ابياته نظرات في الحياة يمسحها الحزن والحسرة ويتألف فيها ركون ادى الى الفن والجمال حيث العزاء والتأسي :

يا ليتني لما شربت الكأس صرفاً لم أثنِ
أو ليتني لما انتشيت من المدامة لم أغنّ
أو أنني لما وردت ، صدرت قبل نضوب دني
أو انني لما ارتويت تركت شيئاً للمتمني
بل ليتني لما شممت الورد لم اقطف وأجن
فلقد جريت مع الشباب مشمّراً ثوبي وردني
لم انتفع يوماً بعلمي في العواقب او بظني
حتى صحوت قرعت من ندم على الاسراف سني

* ولا ادل على شاعرية الخليل من حديث رفيقه الدكتور جميل صليبا الذي يحدثنا بالمناسبة عن ميزات رفيقه الفنية فيقول : كان رحمه الله يقول الشعر تطرباً لا تكسباً . وابواب شعره طغى عليها باب الوصف في الطبيعة والفن ، فليس له في الحكمة والرثاء والاجتماع الا قصائد معدودة ، وكذلك في المدح والفخر ، على انه له قصائد كثيرة في الحماسة القومية ، والنسيب ، والحنين الى دمشق والتفجع على فراقها حيث مسارح صباه ومعاهد انسه . وفي شعره الحماسي فلقد تغنى الخليل بامجاد العرب فوصف نضالهم وبطولاتهم ودعا الى تحررهم ووحدتهم ورثى الشهداء ، وتغنى بالاستقلال ، ودعا الى الثورة على الاستعمار وتغنى بالوحدة العربية الكبرى . وقد خلا شعره من المجون والعبث واللهو ووصف اللذات الحسية ، اما عن الصور الحسية التي تعج في شعره دون الصور النفسية فيقول :

« ان الصور الحسية رموز تعبر عن رؤى قلبي واحلام نفسي » فهو اذن لا يتفنن في وصف الطبيعة الا ليطل من خلالها على اسرار النفس ..

جمهرة المغنين ونفائس أخرى

اما الخبر الجديد ، فهو أن المجمع العلمي العربي في دمشق بدأ بطبع مخطوط كتاب (جمهرة المغنين) الذي خلفه رئيسه الراحل ، وهو اليوم قيد الطبع باشراف كل من الاستاذين عدنان مردم بك نجل الفقيد والشاعر احمد الجندي ، والكتاب الجديد قيم ، وفريد من نوعه ، يبدأ بلمحة عن تاريخ الغناء والمغنين ، ثم تلي فصول عن اول من دوّن الغناء ، وتأثير الغناء في النفوس والمجتمعات ، وآلات الغناء ، وتاريخ المغنين بما في ذلك تراجمهم وطبقاتهم منذ بداية العصر الاموي ، ثم العصر العباسي حتى بني بويه ، بالاضافة الى تاريخ الخلفاء والشعراء الذين كانت لهم صلات وثقى بجمهرة المغنين ، ويقع الكتاب في اكثر من ثلاثمئة صفحة .

وهناك خبر آخر هام وهو ان آل الفقيد قد اهدوا مكتبة الراحل النادرة الى المجمع العلمي حسب ما اوصى قبل وفاته .. وتعد هذه المكتبة من اثمن واضخم المكتبات العربية الخاصة ، ففيها تراث كبير من الكتب المطبوعة والمخطوطة ، وبين هذه النفائس النسخة الاولى من الكتاب المقدس التي طبعت في روما وقد تم نقلها منذ عامين تقريبا واحتلت جناحا خاصا في دار المجمع العلمي ..

من اوراق الرفاق

كثيرون هم الذين كتبوا عن خليل مردم بك .. وكل منهم كان يجد دائما في حياة الرجل وادبه واخلاقه مادة دسمة للكتابة .. ونختار هنا من اوراق رفاقه بعض ما كتبوه عنه .

* كتب الدكتور ابراهيم كيلاني يقول : « كان الفقيد يتميز بالنعومة والدماثة واقامة الصلات الاجتماعية والفردية على اساس من التأدب والحلم والجنوح الى التسامح والمصالحة . اذكر انه كان يتردد عليه رجل عرف بثقل ظله وسوقيته حتى شهر بذلك ، وصدف اننا كنا يوماً في حضرة خليل مردم بك

فسمعنا جلبة عند الباب تؤذن بقدوم الرجل ، فلما شاهدناه في فناء الدار ، هممنا بالانصراف ، فضحك الخليل وقال : اجلسوا لتحملوا معي .. وقد منعه حياؤه وفرط ادبه من ان يقول : ثقله او غلظته .

* وكتب الدكتور حكمة هاشم يقول : « ان تاريخ حياة فقيدنا ينبىء بأنه نشأ على الايمان الراسخ بالعروبة ، وان هذا الايمان ملأ قلبه وجنانه ، وأرهف لسانه وبيانه . لقد اشتغل بقضايا وطنه الاكبر منذ ان شب عن الطوق ، وما قصيدته في (الفتح العربي) التي ترجع الى الطور الاول من اطوار انصرافه الى معاناة القريض ، الا شاهد على ما تقرر .

ولقد ظلت الاشادة بمفاخر قومه في الماضي ، والتوجع لآلامهم في الحاضر ، والتغني بآمالهم في المستقبل ، أوتاراً رنانة من أوتار قيثارته التي انطقها طول عمره ، حتى انه لقي الاضطهاد في سبيل وطنه وامته .. الم تلاحقه سلطات الانتداب حتى لاذبالفرار فرارا من بطشها .

اما الاستاذ الشيخ محمد بهجة الاثري ، عضو المجمع العلمي العراقي، فقد تحدث عن الفقيد في الحفلة التأبينية الكبرى التي نظمتها وزارة الثقافة والارشاد القومي يوم ١٠ آذار ١٩٦٠ على مدرج جامعة دمشق، ومما قاله في تلك الكلمة :

« صديقي الراحل له جوانب متعددة تتألف منها شخصيته وكل جانب منها يحتمل قدرا كبيرا من الحديث ، فقد تسامت نفسه الى العصامية فبنى له مجدا طريفا فوق ما بناه اوائله من المجد التليد .. وهو اديب من عظماء ادباء العرب في هذا العصر . وهو عالم باحث في الادب وتاريخه ، يطلب الاصول الادبية والتاريخية المثالية ، ويعرضها في معارض رشيقة محررة ، ويفتن في تحقيقها وتحريرها وضبطها ، ولتحقيقه وتحريره وضبطه وزن ومكانة لدى العلماء المعنيين بالدراسات العالية وباحياء تراث العرب الفكري في كل مكان .

* وهو شاعر ، يموج في قصيده الجميل الحسن والحس ، وتتجاوب فيه أصداء آمال امته وآلامها في أنماط رائعة كأنها نسق اللؤلؤ . وهو فوق كل هذا مثال للانسان المهذب الراقي ، تتجسد فيه فضائله العليا وتتحقق عنده معانيها في سهولة مطمعة ، ولكنها ممتنعة على كل من يروم محاكاتها ، ذلك لأنها عنده بنت الطبيعة وقد ادركها العقل والتهذيب » .

وبعد .. فان سيرة خليل مردم بك وتراثه لاكبر واغنى من ان تشملهما هذه العجالة ، فلقد كان من نوادر الرجال علما وادبا واخلاقا وعفة ونزاهة ومعرفة، او كما قال فيه احد صحبه : الخاصة تسلم له والعامة تحبه ..

فاذا كنا اليوم نستعيد سيرته في خطوطها العريضة فلنزجي لروحه الكريمة التحية والاجلال وقد اطلت علينا الذكرى الخامسة لرحلته عن دنيانا الفانية ، والعزاء في هذا التراث الحافل الذي خلفه لنا ذخيرة روحية نادرة لاجيالنا العربية الصاعدة .

جان الكسان

القدس

شعر: عبد الرحيم الحصني

لا تحبس الشعر • هذا الجرح ما التأما ... وجرد الماضيين السيف والقلما

لم يخب نجمك في ليل سمعت به ... من الاباة جريحا يحمل الألما

أومت لك الشهب فالمحها تجد سحبا ... من النجيع المصفى تندب القيما

هذي سراياك • ما بال الفتوع سلت ... مدارج النصر • هل افقدتها العلما ؟

معابر النصر ما ضاقت بسالكها ... مادام يغتمد الايمان معتصما

وأين من دمعة المظلوم يسكبها ... على الديار الحزانى ، سيف من ظلما

★ ★ ★

ليلي • وأين الصباح الرغد يودعه ... اخبار من نزع السلوان • وانتقما

طيف تود جفوني لو يلامسها ... عجلان يمسح عن اهدابها السأما

اين المتارف من أهلي تبادلها ... كف الألوهة شهدا صافيا ولمى

امسي وأصبح • لا ريان هلتها ... القاه خصبا • ولا نيسانها ابتسما

★ ★ ★

يا موطنا لم ادر لولاه قافية ... ولا هززت فؤادا يسكب النغما

اصفيتك الود لا حبا بأمنية ... شعري بحبك فوق الأمنيات سما

من كرمة الله اترعت الكؤوس فلن ... اموت دون ارتشاف النعميات ظما

أتحلف الشمس أني ما فرشت لها ... من مخمل الشعر في دنيا الجمال سما

مهد السلام ومسرى الهاشمي على ... رمالك السمر شاع الحزن وارتسما

ونحن ياخجل التاريخ ما برحت ... جولاتنا خطبا • نستنفر الكلما

يا صاحب الحق والاسياف نائمة ... ما هادن الظلم حر يعرف الكرما

بين الحياة وبين الراغبين بها ... جسر اذا ما استراح الصارم انهدما

وللمعالي جنان لا أريج لها ... الا اذا ارتشفت ماء الحياة دما

عفو الجباه التي ذاب النهار بها ... بعد الحرير الموشى تسكن الخيما

كان الرفاه ظليلا في ملاعبها ... والحسن مؤتلقا • والحب مبتسما

يا من لآهة مظلوم ولو سمعت ... صيحاته في زحام الخطب ما ظلما

يا من لنصرة ثكلى نال من غدها ... ظلم الحياة •• ولما تحصد الحلما

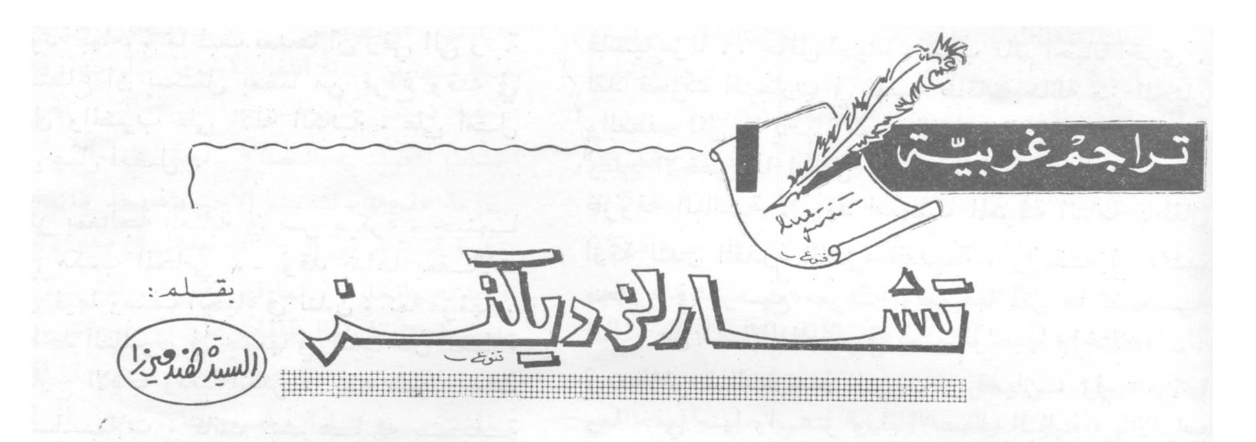
يا من لتائهة لم تدر أين غدا ... رضيعها • أطواه الغدر • أم سلما ؟

يا من لشيخ بظهر الغيب سلوته ... يصارع البؤس والحرمان والهرما

توانت الهمم العرباء وانصرفت ... عن التياع الحمى • استغفر الشمما

كفرت بالحلم رشدا لم يصن شرفا ... يدمي • ولم يحم يوم العاديات حمى

عبد الرحيم الحصني



لعل أكثر ما يستلفت الانتباه في كتب تشارلز ديكنز، مثل ، داڤيد كوبرفيلد ، واوليڤر تويست ، والآمال الكبيرة ، هو الصلة الوثيقة بين حياته من جهة ، وحياة أبطال رواياته ، داڤيد في رواية « داڤيدكوبرفيلد » وپيب في رواية « الآما ل الكبيرة » ، واوليڤر في رواية « اوليڤر تويست » ، من جهة أخرى .

أتراني قادرة على خرق الحجب الكثيفة للتوصل الى المشاكل الرئيسية التي استقرت في نفسية تشارلز ديكنز والتي استطاع ان يجسدها في شخصيات رواياته! هذه المشاكل التي أضفى عليها من ذاته ومن واقع حياته



★ تشارلز ديكنز ★

المرير ، ما بعد بها عن عالم الخيال وأدنى ما بينها وبين الواقع ، فنبضت تحت ازميله ، وارتعشت للمس مشاعره ، فتفجرت الحياة فيها دما وعرقا ، وجهدا ودموعا ، كان لديكنز منها النصيب الاوفى .

لنعد الى الصحائف التي حبرتها ريشته ، تحكي في سطور وكلمات ما عرفه الناس عن ديكنز ، وتخفي بين السطور والكلمات الاحساس المرهف ، والطفولة التعسة الكئيبة ، تمر به مراحلها ببط، وجفاف ، لتترك جذورها العميقة على صفحات قلبه ، ونوازع نفسه ، ودروب الفكر منه ... فتسيل منها بعد حين ، في رجولته وشبابه ، عبقرية خلاقة فذة تجرف في طريقها كل ما تستطيع نزعه من أشواك ، جذورها في نفسه وروحه ، وفروعها قد امتدت عبر العالم كله على صفحات كتبه ، ترسمها ريشته روايات وقصصا ، وتصنع أنامله من صلصالها تماثيل ما كانت الا بشرا سويا .

سوف أتحدث كثيرا عن حياته لانها وثيقة الارتباط بأكثر من رواية منرواياته. سأخبركم أن اسمه تشارلز جون هافام ديكنز ، ولد في « لاندبورت » في جنوبي انكلترة عام (١٨١٢) . وفي الثانية من عمره انتقلت أسرته الى « لندن » ، ثم الى « كنت » ، ما لبثت بعدها أن عادت مرة أخرى الى « لندن » .

عندما بلغ الصبي العاشرة لزم البيت ، حين لم يستطع والده الاستمرار في ارساله الى المدرسة بسبب فقره وديونه .. ولم يكن هذا كل ما خبأه القدر له ، بل كان المزيد في انتظاره عبر مراحل طفولته ومراهقته وصباه . فحين كان والده نزيل السجن بسبب ديونه ، ألقيت على عاتق الصبي الصغير مهمة اعالة الاسرة . وكان أول عمل حصل عليه في مكتب محام ، يؤدي فيه مهام تنظيف المكان ، وحمل الاوراق والدوسيهات الى

المحكمة والعودة بها .. ما لبث بعدها أن رقي الى رتبة كاتب ، فاستطاع أن يستغل بعضا من فراغ وقته في تعلم الاختزال والضرب على الآلة الكاتبة ، على أمل الحصول على عمل أفضل .

بدأ ديكنز بمعالجة الكتابة في سن مبكرة ، حينما كان يعمل في مكتب المحامي .. وقد بدأها بمقالات صغيرة حاول فيها وصف الحياة في لندن ، كما عرفها . وقد ساعده أحد الناشرين في جمعها في كتاب كان الخطوة الاولى في معارج الادب ودنيا الفكر . وقد شجعه ذلك على كتابة مسلسلات ، كانت تنشرها له صحيفة اسبوعية ، تحت عنوان : « صحائف بيكويك » التي أضحت فيما بعد كتابا كان حجر الاساس في شهرة ديكنز الادبية ، ما لبث بعدها ان تدرج في معارجها حتى بلغ القمة .. ودخل ديكنز عالم الادب من أوسع أبوابه .. وراحت رواياته تترى واحدة اثر أخرى ، « حانوت الطرف القديمة » ، « دوريت الصغيرة » ، « نيكولاس نيكل باي » ، « قصة مدينتين » ، « صحائف بيكويك » ، « دافيد كوبرفيلد » ، « اوليفر تويست » ، « الآمال الكبيرة » ، وغيرها ..

وغاضت العبقرية ، وخبا نورها فجأة في عام ١٨٧٠، بعيد ساعات قليلة من مرض مفاجيء .

وهكذا انطوت صفحة من أنصع الصفحات لعبقرية تحدت الظروف وقسوة الحياة ، وتخطت الفقر والفاقة ، وداست الشوك في طريقها الى القمة .. أجل انه تشارلز ديكنز ، الذي ترعرع في أفقر وأقذر أزقة لندن ، فكان الناقد الاجتماعي الذي أسهم في معالجة مشاكل مجتمعه التي عاشها .. والتي تركت على صفحات قلبه ، وفي نفسه آثارا لم يمحها الزمن وعطاؤه .

طفولته :

لعل هذه المرحلة ، مرحلة الطفولة ، التي قد يمر بها الكثيرون دون حادث يذكر ، أو أثر يبقى على مر الايام ، هذه المرحلة بالذات هي التي كانت نقطة التحول في حياة تشارلز ديكنز ، والتي أدت الى بروز ديكنز كمصلح اجتماعي ، عالج مشاكل الفقر والتشرد لاطفال الازقة ، وأطفال الملاجيء والاصلاحيات وفي أطراف المصانع ، وكل طفل حرم نعمة الاسرة ، وافتقد رعاية الاب وظله ، وحنان الام ودفء احضانها .

ومما لا شك فيه أن طفولة ديكنز وأوائل صباه قد أمداه بذخيرة لا تنفذ من الذكريات التي خلفتها تجارب شتى ، بعضها كان مبهجا سارا ، والبعض الآخر كان قاسيا مؤلما .. حافل أحيانا ، كئيب قاتم أحيانا أخرى . لقد فجرت التجارب في نفسه طاقات هائلة من الحنان والعطف لكل ما يحمل معنى الاسى والحزن والحرمان ، وعلى الاخص ما اتصل فيها بأطفال وجدوا في مثل ظروفه البائسة . وقد أسهمت المعرفة التامة بأطفال أزقة لندن القذرة الفقيرة القديمة ، وعمله في مكتب محام ، في توسيع معرفته وتعميقها لكل ما تضمنته البيئة من مشاكل العصر في شتى نواحيها واختلافها .. في مظاهرها الخارجية التي تبدو للعيان ، وفي دخائلها وما خفي منها واستتر وراء الاسمال البالية ، والاثواب المزقة ، وقد بانت عبر ثغراتها لحوم انسانية تشتكي القر في الشتاء ، وتتلوى تحت لفح اللظى في الصيف .. المجرمون في السجون وداخل المكتب .. المتسكعون في انتظار فرصة لربح ، أو سرقة ، او اهدار دم ، أو ازهاق روح ، حول المكتب وخارجه . لقد أتيح لديكنز أن يحتك بجميع طبقات الشعب الانكليزي خلال عمله في مكتب المحامي ، وخاصة الفقراء والمعوزين منهم ، الذين كثيرا ما كان يمضي الساعات متأملا ملامحهم المشوهة ، وابتساماتهم الصفراء ، تسيل على أطراف شفاههم وكأنها تكشيرة الموت .. شفاه جافة تسلقت اليها لفافات تبغ تلقفتها الايدي البائسة وقد هدها الحرمان ، وأضناها الجوع ، تحاول اسكان صراخه بدخان اسود ، يحمل العلة الى الصدر ، والفناء لبقايا هيكل متداع . وبين مكتب المحامي وأبواب المحاكم ، قطع ديكنز دروب المعرفة ، وتخطى الملامح الممسوخة المشوهة ، والابتسامات الصفراء الباهتة ، والهياكل الناحلة الخاوية ، ليصل الى الاعماق ، أعماق الانسانية في هيكل الانسان الذي لا تستر عيوبه وسوءاته ستور المدنية وزيف ديباجها وألوانها .

كانت العوامل والبيئة والظروف التي جابهت ديكنز في طفولته ، كما عبر عنها « بيكر .ا. ايرنست » في كتابه « تاريخ الرواية الانكليزية » ، هي التي قررت مصيره ، اذ يقول :

« ان الظروف السيئة التي أحاطت طفولة ديكنز كالفقر ، والنضال في سبيل لقمة العيش ، والمقارنة بينه وبين أطفال مختلف الطبقات من دنيا ووسطى قد حفرت أخاديد عميقة في شخصيته وفكره وعقله ، منذ اللحظة الاولى وحتى النهاية . هذه الظروف هي التي قررت مصيره ، ورسمت مستقبله ، وحددت الخطوط البارزة لشخصيته » .

كذلك تحدث عنها في اسهاب الكاتبان البريطانيان « ل. ا. غ. سترونغ » و « مونيكا ريدلش » في كتابهما « الحياة في الادب الانكليزي » ، يقول الكاتبان :

« ان طفولة تشارلز ديكنز وأوائل صباه التي قضاها في « تشاثام » وفي مدينة « كامدن » قد تركت أبعد الاثر في نفسه . ولما كان والده فقيرا معدما ، فقد حرم ديكنز من تلقي الثقافة الكافية . كما ان عمله في مستودع قديم كان الحافز له لتعلم الضرب على الآلة الكاتبة والاختزال، والى البحث عن عمل أفضل . كما دفعه ذلك ، فيما بعد ، الى محاولة معالجة الكتابة ، هربا من واقعه الذي لم يقبل به ابدا ، في مسلسلات قصيرة كان يدفعها الى صحيفة رخيصة .. هذه المسلسلات هي النواة الاولى لانتاجه الادبي الغزير » .

وهكذا نلتقي مع الادباء والنقاد في النقطة التي انطلقوا منها خلال دراساتهم الواسعة العميقة لديكنز وآثاره الادبية .. والتي التقوا فيها على رأي واحد ، وهو أثر طفولة ديكنز في مستقبله ومجده الادبي .

تشارلز ديكنز .. الرجل والروائي :

فبعض الناس يختلفون عن غيرهم بمدى وعمق تأثرهم بأحداث حياتهم ، وخاصة ما يتعلق منها بالمرحلة المكونة لشخصية الفرد ، ألا وهي مرحلة الطفولة . وديكنز كان من الاشخاص القلائل الذين تأثروا أعمق التأثر وأبعده بأحداث طفولته وتجاربها . لقد كانت هذه المرحلة بالذات نقطة التحول في حياة ديكنز ونفسه . ترى هل كان يسعد الحظ الادب الانكليزي بأن يضيف الى أمجاده صرحا جديدا وعملاقا اديبا ، لو اختلفت طفولة ديكنز .. أو لو أتيح له أن يعيش حياة عادية كتلك التي عاشها أقرانه ولداته في عصره ؟

كانت الذكريات المريرة تسقي خياله الخصب .. وتغذي عبقرية تحبو في طفولة ، ما لبثت ان استوت خلاقة مبدعة تبعث الروعة في النفس ، وتدفع الى العين فتنة الرسم ، والى القلب جلاله ودقته .. تلك الذكريات التي طالما دفعت الدموع الى عيني الصبي الصغير .. ومع كل دمعة كانت زفرة .. ومع كل زفرة نواة لرواية أدبية جديدة .. وعلى الادب مشى ديكنز الى الخلود .

لقد طرق هذه الناحية بالذات الكاتب البريطاني « هـ. م. بورتون » في مقدمته لرواية ديكنز « الآمال الكبيرة » ، كتب يقول :

« اذا نظرنا الى المتاعب العديدة ، والظروف البائسة التي لازمت طفولة ديكنز ، نظرة عامة ، وقارنا بينها وبين مثيلاتها ، أو ـ لعلني استطيع التجاوز في القول ـ ما هو أسوأ منها في حياة أطفال آخرين ، لوجدنا ان شيئا ما في طبيعة ديكنز كان التربة الطيبة التي انغرست فيها أحداث طفولته التعسة وتجاربها ، لتنبت بعد حين عبقرية فذة ، وليست الاحداث بحد ذاتها . فديكنز ، مثلا ، لم يتعرض في حياته للعمل في معمل لصنع أصبغة الاحذية والجلود ، كما قدر لغيره . لقد عمل في مستودع قديم يلصق فيه البطاقات على الزجاجات .. وعمله هذا لم يستغرق من عمر الزمن الا أشهر قليلة كان خلالها يتقاضى سبع شلنات اسبوعيا . وعلى الرغم من عدم وضاعة العمل « كليا » ، فقد ترك أعمق الاثر في نفس ديكنز ، دفعه الى تجنب الاشارة اليه في خجل عميق ، لم يخفف من أثره كل المجد والشهرة التي حصل عليها ديكنز » .

وهكذا وصل الادباء والنقاد في دراساتهم لديكنز وادبه الى الاجماع على أثر طفولته في تكوين شخصيته وفي تلوين مستقبله بالصبغة الادبية المبدعة . فلنشد أعنة الفكر في جولة عبر الادب الواقعي الاجتماعي ، أدب ديكنز وعالمه الخاص ، لنشارك ابطاله وشخصياته مشاعرهم .. ونقاسي متاعبهم وأساهم .. ونشاركهم تشردهم وفاقتهم .. فنعيش أحداث ديكنز نفسه كما رسمتها ريشته ، أو كما حددتها خطوط الناقدين ودراسة المؤرخين ، ولنبدأ برواية « داڤيد كوبرفيلد » .

داڤيد كوبرفيلد :

في دراستنا لرواية « داڤيد كوبرفيلد » نجد أنها قصة صبي فقد أباه في سني طفولته المبكرة ، واضطر الى الحياة تحت وطأة ظروف بائسة ، كمثيلتها لدى ديكنز نفسه .

(توفي والد داڤيد قبيل ولادته بستة اشهر ، تاركا زوجته الشابة مع خادما تدعى « بيغوتي » ودخلا ضئيلا لا يتجاوز (١٠٥) جنيهات سنويا ، لم تكن كافية لسد نفقات الحياة الضرورية . واضطرت الام الى الزواج ثانية من « ادوارد ماردستون » الذي جلب شقيقته للحياة معهم في نفس البيت . ونال داڤيد من سوء المعاملة الشيء الكثير قبيل ارساله الى مدرسة داخلية حيث لقي من سوء المعاملة ايضا ما أنساه زوج امه . وقد أنهيت فترة الدراسة وأعيد الى البيت فجأة حين توفيت والدته وارغم على العمل في مستودع للخمور وتجارتها ، وكثيرا ما بات على الطوى بعد يوم حافل بالعمل ، من

غسل الزجاجات الى الصاق البطاقات عليها . وأخيرا استأجر غرفة لدى عائلة « ويللكنز ميكوبر » وأطفالهم الاربعة . وعندما زج برب العائلة في السجن بسبب ديونه ، أخذ داڤيد على عاتقه مسؤولية الأسرة التي أحسنت وفادته . بعد ذلك انتقل للحياة مع عمة ثرية له في « دوڤر » تدعى « بيتسي » ألحقته بمدرسة داخلية تختلف كثيرا عن تلك التي عرفها من قبل . وقد تخرج منها بامتياز وتفوق اعادا اليه ثقته بنفسه . وعندما حصل على عمل في مكتب محام أحب ابنته ثم ما لبث أن تزوج منها بعد وفاة والدها . بعد عدة سنين توفيت زوجته ، فتزوج مرة أخرى من « آغنس ») .

لقد كان لهذه الرواية صدى بعيدا في عالم الادب . وقد تعرض لأبرز نقاطها ، الكتاب الاميركيون الاربعة « ر. ب. انكلز » و « ا. س. كوپر » و «س. اوبنهيمر» و « ي. ر. بينيت » ، في الجزء الرابع من كتابهم « مغامرات في الادب الانكليزي » ، حيث قالوا :

« لقد تعلم ديكنز من تجاربه الحاجة الى الاصلاح فوالده ، الذي لم يكن قادرا على القيام بمسؤولياته ، قد أصبح مفلسا وزج به في سجن المدينين . لقد عاش الاب في عالم أدبي بعيد عن الواقع والمسؤولية ، كما فعل « ويلكنز ميكوبر » في رواية « داڤيد كوبرفيلد » . كما أن طفولة ديكنز البائسة ، التي انقضت على وتيرة واحدة في الصاق البطاقات على الزجاجات ، قد انعكست على طفولة داڤيد في عمله بمصنع صبغ الاحذية والجلود . ومن هاته التجارب المريرة ، حين كان يقاسي آلام البرد وقد عضه الجوع بنابه ، تعلم ديكنز الحنان والعطف ، يغدقه على اولئك الفقراء والمنكوبين الذين كانوا الموضوع الرئيسي لمعظم رواياته » .

لقد تعمد ديكنز ان يقص حكاية صبي بائس في روايته « داڤيد كوبرفيلد» ، كما لو كان يرويها أي طفل بائس مشرد في واقع الحياة الذي نحياه .. صبي يعيش بذكرى كل حرف قاسٍ ، وصدى كل كلمة نابية ، لا تمت الى المعاني الانسانية بصلة ، واجهته في غمرة متاعبه ونضاله مع الحياة .. يذكرها في مطلع صباحه وفي عتمة أمسياته .. تعتاده ذكراها في مشرق كل شمس ومع كل غروب .. يجترها في لياله بعد اذ يعانيها في نهاره .. حتى جرت في دمائه وانسابت عبر شرايينه لتستقر في اللاوعي منه .

لم يكن ديكنز واقعيا أكثر منه في رواياته وشخصيات أبطاله ، حين أطلق العنان لمشاعر الطفولة وأحاسيسها ، أن تتحدث على لسان أبطاله في طفولتهم ، داڤيد كوبرفيلد ، أوليفر تويست ، وپيب . لقد شابه داڤيد ديكنز في كل ذكرياته الطفولية المريرة واحداث صباه البائسة .. كل ما حدث ، وما لم يحدث .. كل الاماني العذاب التي لم تكن الا سرابا .. كل المباهج والمسرات التي افتقدها .. جميع الآمال المفرحة التي دمرتها المصائب .. كل ذلك مما لا يمكن نسيانه أو اعادة الزمن القهقرى لتحقيقه .

وما كان ديكنز ليقدم « داڤيد كوبرفيلد » كاحدى التراجم لحياة رجل اديب ، لقد نحى ديكنز الجانب الادبي من حياته ليتحدث عن طفولته .. طفولته البائسة المعذبة التي تتجدد كل يوم في نفس كل طفل شريد بائس، حرم نعمة الاسرة ودفء الامن ، وشعور الاستقرار . لقد كتب تاريخ طفولة وصبا هما طفولته وصباه . لقد حدثنا عن الكيفية التي تم بها تكوين شخصية الصبي وعقله .. كيف اتخذت أفكاره المتعبة شكلها المميز .. كيف نضب الخيال لديه بسبب كل الامور التي خذلته في الحياة . كل ذلك اجتمع في رواية «داڤيد كوبرفيلد» .. بل لعلي لن أكون مغالية اذا ما اتفقت مع النقاد في رأيهم أن الكتاب الذي يعتبر اساسا لدراسة أدب ديكنز في كتبه كلها حتى « داڤيد كوبرفيلد » هو كتابه « داڤيد كوبرفيلد » .

لقد سجل ديكنز في هذا الكتاب ، الاهمال والمكابدة والعناء التي يلقاها ابناء جلدته .. مسؤولية الاب التي تحول حالى زوج الام الذي كان وحشا آدميا .. الحرمان من الذهاب الى المدرسة وتلقي العلم كغيره من الصبيان .. التجارب القاسية التي سحقت قلبه في مصنع أصبغة الاحذية المثيرة للاشمئزاز .. التشرد خلال أزقة لندن القذرة ، تلاحقه العيون الماكرة المراقبة .. الصحبة المجوجة لشخصيات ممسوخة .. حتى منظر السجن حيث قضت فيه عائلة ديكنز ردحا من الزمن ، قد استبدله ديكنز في روايته بنزل « الملك بنش » في مقاطعة « مارشال سي » .

كان داڤيد ، كديكنز ، في العاشرة من عمره عندما هرب من المستودع ، فأعيد الى المدرسة . كذلك التفكير في المستقبل والخوف من النشوء في جهل لا يؤهله لرجولة ومستقبل لائق ، والقلق من المستوى الثقافي ، كل هذه العوامل عملت جنبا الى جنب مع متاعب داڤيد

المادية والجسدية كمثيلتها لدى ديكنز تماما . فديكنز قد خبر كل أنواع البؤس والكرب ، كداڤيد ، دون أن توهن المصائب عزيمته أو تشوه خططه . لقد تعلم من تجاربه انه ــ بلا ثقافة أو علم ــ سيبقى الشريد البائس والطريد الملاحق خلال أزقة لندن وبين قاذوراتها .

لقد تحدث ديكنز في روايته « داڤيد كوبرفيلد » قائلا :

« لم يتح لمخلوق قط ان يرفع الستار بعد أن أسدلته . لقد حركته لبرهة خلت ، خلال هذه القصة ، بيد مترددة ، ما لبثت بعدها ان اعدت انزاله بفرح طاغ . فالذكرى ، ذكرى تلك المرحلة ، مخيفة ومؤلمة جدا بالنسبة لي ، بكل ما فيها من مآسي ربما خالطتها أحيانا الرغبة في الامل لتحقيق أمنية ما ، لم تكن لدي الشجاعة لمحاولة تحقيقها ، على الرغم من طول الفترة التي كان علي أن أتحمل فيها كل المتاعب الخارجية ، ومراودة النفس للاماني من الداخل ، خلال مدة من عمر الزمن ، طالت أم قصرت ، بلغت السنة أم عديدا من السنين ، ذلك ما لم أعرفه قط . كل ما عرفته انها حدثت يوما ، وانها توقفت بعد حين من الدهر .. وها انا أعود اليها لكتابتها وتسجيلها .. ولكن .. لقد عشتها هناك بعيدا .. زمنا .. » .

وهكذا تدبج يراع الكاتب البريطاني الشهير والمصلح الاجتماعي الكبير ، تشارلز ديكنز ، هذا الاعتراف بواقع عاشه زمنا ، وسجله بعد سني الشهرة والمجد والغنى .. مشاعر طفولة بائسة ، تقطر منها الدموع تخالط الدم عبر ليونتها وطراوة عودها ، حين لم يرق لها قدر .. ولا بشر ، في أكثر من رواية من رواياته ..

اوليڤر تويست :

وكذلك عاد ديكنز مرة اخرى الى تجارب الطفولة البائسة ، يغترف منها ليكتب بأسلوبه البارع رواية « اوليڤر تويست » . لقد كان ديكنز في ظروف جد مختلفة حين كتب روايته هذه . لقد كتبها حين هادنته الايام ، ومشت اليه الشهرة على أطراف قلمه السيال ، فعاش في بحبوحة من العيش . ولكن ، لا الشهرة الواسعة ولا المكانة الادبية الرفيعة ، استطاعت ان تنزع الشوك من نفسه ، وتمسح الدم على اطراف قلبه ، وتجفف الدمع في مآقيه . لقد ألحت عليه مرارة الذكرى لطفولته الاولى ، والمجد يطرق بابه .. وطوفت خيالات أبطال روايته الجديدة في مخيلته ، وزرعت دروب الفكر منه ، تستقي الحياة من عبقريته الخلاقة المبدعة ، فتلون أطرافها بريشته السحرية ، فكانت « اوليڤر تويست » .

(ففي أحد الايام وجد بعض المارة امرأة ملقاة على قارعة الطريق ، أقرب الى الموت منها الى الحياة ، حملوها الى مكان قريب ، ما لبثت فيه أن فارقت الحياة دون أن تفوه ببنت شفة ، بعد أن وضعت غلاما .

والحق الطفل الوليد بمؤسسة لتربية وتشغيل اليتامى والفقراء ، واطلق عليه اسم « اوليڤر تويست » ، حيث أمضى سنينا تسع من الضنك والعذاب ، والجوع والحرمان . لقد مر بصنوف العذاب كلها ، كما مر بها كل من ساقه سوء طالعه الى هذه الدار المفزعة . وعند بلوغه التاسعة دفعته المدرسة الى راعي الابرشية ليعني به ويشرف على تربيته .. وبعد فترة من القسوة وسوء المعاملة ، كانت قدما اوليڤر تحملانه في الطريق المؤدية الى لندن هربا من الظلم والوحشية ، لا يملك شروى نقير وقد هده الجوع وأضناه التعب .

وفي المركبة التي تبرعت بحمله الى لندن ، لقي اوليڤر صبيا يدعى « جاك دوكينز » ، قدم له بعض الطعام ، وأحاطه بشيء من الرعاية دفعت اوليڤر أن يثق بالصبي جاك ويتبعه الى نزله الذي لم يكن سوى وكرا لعصابة سرقة ونشل يترأسها مجرم يدعى « فاغن » . لم يدر اوليڤر من أمر العصابة شيئا ، وهو يراقبهم كل يوم يمارسون لعبتهم المعتادة « النشل » حيث يتلقون الملاحظات والتعليمات لتحسينها ، فقد خيل اليه انها مجرد لعبة ينزلون الى الشارع لممارستها فيما بينهم . وصدمته الحقيقة عندما اشترك باللعبة المسلية في أحد شوارع لندن حين مارسوها مع رجل محترم كان يعبر الشارع . وحين فاجأهم البوليس فر أفراد العصابة المهرة ، وقبض على اوليڤر وحده ، حيث سارع الرجل المحترم « مستر براونلو » الذي كان الضحية الى انقاذه من البوليس . لقد قرأ « براونلو » امارات البراءة والطهارة على محيا اوليڤر ، فاصطحبه الى دار قريبة كان اوليڤر فيها موضع الرعاية حين أصيب فيما يشبه الانهيار العصبي وهو يتمثل بشاعة العمل الذي سيق اليه .

واستعاده « فاغن » بالقوة ، حين رآه في الشارع ، وقد وقر في نفسه أن يدفع بالصبي في جريمة يكون فيها القضاء على الصبي خوفا من وشايته . وفي جريمة سطو على أحد المنازل ، دفع « فاغن » باوليڤر تويست في اتونها .. وسارعت سيدة المنزل تنقل الصبي الجريح الى دارها ، بعد ان سقط جريحا برصاص البوليس الذي

فاجأهم . وتتبعت قوات البوليس العصابة حتى قبضت عليها وشنقت « فاغن » .

وأسعد الحظ اوليفر بلقاء الرجل الكريم « براونلو » مرة أخرى ، حيث تبرع بمساعدته في كشف ما غمض من ماضي حياته ومولده وأسرته . وبعد جهود طويلة مثمرة استطاع « براونلو » ان يتعرف باوليفر ابنا لاحد أصدقائه القدامى « مستر ليفورد » الذي انفصل عن زوجتم أثر خلاف نشب بينهما ، حيث قضت هي على قارعة الطريق كما نعلم .

وورث اوليفر ثروة أبيه المتوفى ، وعاش في ظل رعاية « مستر براونلو » ، الرجل الكريم الذي تبناه والذي انقذ حياته يوما) .

ونحن اذا ما أنعمنا النظر في طفولة اوليفر وجدناها شبيهة بمثيلتها لد ىداڤيد ، وكذلك لدى پيب في رواية « الآمال الكبيرة » التي سنأتي على مناقشتها في الصفحات القادمة ، وكذلك شبيهة بطفولة الكاتب نفسه .. طفولة ديكنز التي كانت النبع يستقي منه احداث رواياته الثلاث .. « اوليفر تويست » و « داڤيد كوبرفيلد » و « الآمال الكبيرة » .

فالتشابه كبير بين احداث طفولة اوليفر في مؤسسة ايواء اليتامى وأحداث طفولة داڤيد في مصنع صبغ الاحذية والجلود ، وكذلك طفولة ديكنز في المستودع القديم .. ونمضى مع الاحداث تمر بأبطال ديكنز الصغار، فاوليفر تويست ، ببراءته وصفاء طويته ، كان الضحية السهلة لصبي شرير استطاع ان يسير به الى وكر الاجرام والخديعة والضعة .. لقد مثل اوليفر البراءة والسذاجة الطفولية في قلب عالم الاجرام والفساد .. لقد عمل كل فرد من افراد العصابة الشريرة على زرع الفساد والاجرام في النفس الغضة البريئة الصافية . لقد عمل « فاغن » على تدمير نفسية الصبي لانه شريد بائس ، حرم الراعي، يدفع بساعده الشر والاذى ، بعيدا عن عالم الطفولة البريء .

لقد كان ديكنز محقا في لفت الانظار ، في مأساته الرائعة ، الى النتائج السيئة التي يؤدي اليها التشرد والحاجة من جهة ، وافساح المجال لعصابات البغي والشر من جهة أخرى ، تسرح عبر الازقة المظلمة الفقيرة تصطاد متشرديها ، تتلقفهم ضحايا بريئة ، تنفث فيها سموم الشر ، وتزرع نوازع الاجرام ، فتزداد نسبة الاجرام والمجرمين ، مما يؤدي الى الاساءة الى المجتمع ، وتمزيق كيانه ، وتمزيق الدعة والاستقرار والامن فيه . لقد تجنب ديكنز اللجوء الى الناحية الرومانسية الورعة في معالجته هذه المشكلة الخطيرة في المجتمع الانكليزي خاصة ، والعالمي عامة ، مشكلة الاجرام والمجرمين . لقد أوضح في دراسته لشخصيتي «نانسي» و«سيكس» من أفراد عصابة « فاغن » ، الوحشية البشرية، والمخلوق المتوحش الذي ضرب صفحا عن كل المعاني الانسانية والضعف الانثوي باقدامه على جريمة القتل ضربا حتى الموت لانثى رقيقة ضعيفة .

وتعرض ديكنز بفصوله الاربعة الاولى من رواية « اوليفر تويست » الى موضوع مؤسسة ايواء اليتامى وتشغيلهم .. لقد تحدث ديكنز فيها باسهاب عن هذه المؤسسة التي يوحي اسمها بأرفع معاني الانسانية وأعمقها ، ويحكي واقعها ابشع انواع القسوة البشرية اللاانسانية . ومما لاشك فيه أن هذه الفصول الاولى تعتبر في الذروة مما كتب ديكنز في حياته .. ذلك ان النقاد لم يعتبروا هذه الفصول وصفا لحادثة هروب طفل من مؤسسة الى عالم ما خارج المؤسسة ، بل الى عالم خاص ومجتمع خاص ، صوره ديكنز ببراعة كنموذج للمآسي التي حدثت في العصر الفيكتوري ، ولا مجال للانكار ان النماذج الحقيقية التي أوردها ديكنز في روايته « كفاغن » و « بيل بيكس » و « نانسي » ، قد وجدوا جميعا وعاشوا فترة معينة ، ولكن كجزء من تجارب ديكنز الشخصية عبر الحياة في العصر الفيكتوري ، وربما شاركه في ذلك كثير من قرائه في تجاربهم الشخصية كذلك .

لقد حمل ديكنز مشعل الفكر لينير الدرب للمسؤولين بالقاء الضوء على كل الحوادث المؤلمة التي تعمر الزوايا التي غمرتها الظلمات ، والتي طالما تسترت وراء اسماء ومظاهر لا تعني الا الزيف والخداع ، وما كانت المعول الهدام في بنيان المجتمع خلال كل العصور والازمنة. لقد ألقى ديكنز الضوء على الاسباب المباشرة لجميع مآسي المجتمع التي تتركز في كلمة « التشرد » ، يسوقها أولئك الاطفال التعساء الذين حرموا نعمة الاسرة والوالدين .

وقد وصف الدكتور « هاموند » وزوجته احدى هذه المؤسسات ، كما جاءت في كتاب « منذ ديكنز حتى هاردي » ، قال :

« لقد حرصوا على ابقاء هذه المؤسسات الاصلاحية ولكن .. لقد صنفوا الجماعات حتى لا تربط بينها أية رابطة من زمالة أو صداقة ، ومنعوا كل علاقة بين الطبقات

المختلفة التي صنفوها . وهكذا ، تبعا لهذا النظام ، تجد الازواج والزوجات ، الآباء وأطفالهم ، قد أبعدوا عن بعضهم البعض بقسوة بالغة ، وفرض عليهم أن يعيشوا منفردين » .

وأضاف الكاتب يتحدث بلهجة مغايرة : « وقد أيدت اللجنة المسؤولة هذا النظام وأقرته » . واستمر يتحدث في برود : « ماذا في استطاعة هؤلاء الافراد المساكين تغييره والحياة تنطفىء في عيونهم من جراء الجرع والحرمان ، سواء كان ذلك تدريجيا أم دفعة واحدة ! » وأردف قائلا : « لقد أخذوا على عاتقهم أبشع مهمة ، هي تفريق الازواج المساكين عن زوجاتهم .. وبدلا من دعوة الازواج القيام بمسؤولياتهم العائلية ، كانوا يبعدوهم عن عائلاتهم ، ويرغمونهم على العيش كعزاب أعزاب لا يمتون الى عائلاتهم بصلة . ولا مجال للتساؤل عن عدد الطلبات في سبيل الخلاص قد ضلت طريقها عبر طبقات المجتمع .

ولكن أنى للشفاء والخلاص ان يجد طريقه الى هؤلاء المساكين ، والمسؤولون في االجنة رجال محنطون ، قد خبت في نفوسهم كل معاني الانسانية والرحمة ! »

وهكذا استطاع ديكنز ان يكشف الداء ، ويضع مبضع الجراح على العلة الخبيثة تمهيدا لاستئصالها حتى لا تستشري فتقضي على الجسم كله . لقد توصل الى معرفة مشكلات مجتمعه الخطرة ، ووضعها على منصة البحث والمناقشة بأسلوب العارف العليم .. واقترح الحلول بمعرفة المصلح الاجتماعي الذي نفذ ببصره الخارق الى دخائل الامور وبواطنها بعد اذ لم تعد تخادعه المظاهر البراقة المزيفة ، تغلف الحقائق الرهيبة المؤلمة تحاول اخفاءها عن الانظار في مخطط سداه الشر ولحمته الاجرام للقضاء على العناصر الخيرة في المجتمع . انه مخطط الشر والاجرام ينبع من النفوس المريضة الفاسدة ، تحمل الجرثومة الى جسم المجتمع للقضاء عليه . وقد اعتبر النقاد ديكنز ، بحق ، المصلح الاجتماعي الكبير الذي كرس عبقريته لعلاج ما فسد ، ورتق ما رث وبلي من أمور مجتمعه وبيئته وبلده .

والآن سنعرج ، في ختام مطاف رحلتنا الادبية عبر عالم ديكنز الادبي ، الى روايته الكبرى « الآمال الكبيرة » . ففي ذروة المجد والشهرة ، ورواياته تترى واحدة اثر أخرى ، تصنيف حلقات جديدة في سلسلة أمجاده الادبية وقف ديكنز يطل عبر نوافذ قصره الريفي الذي يشرف على المدن الثلاث التي احبها دوما : « سترود » و « تشاثام » و « روشستر » والتي شهدت أيام طفولته الاولى حين كان يتفيأ ظلال الاسرة ، يرتع في نعمائها ، فيستقي رعاية الاب وعطفه ويستمرىء الحنان والدفء الى جوار الام ، قبيل الاحداث التي أدت الى سجن أبيه وتشرد الاسرة وتقويض بنيانها . وقف ديكنز خلف نوافذ قصره يسرح النظر في مراتع طفولته ، حين كان يحلم انها ستكون ملاعب صباه غافل عن غدر الزمان وقسوة الاقدار ، تطوح به في آفاق الحياة البعيدة ، فتصبح أزقة لندن القذرة وأحياؤها الفقيرة مأواه وملاعب صباه .. وتحترق رئتاه الصغيرتان بالدخان الاسود بدل الهواء النقي في هذه المقاطعة الريفية الوادعة .. الاماني العذاب ، والآمال الطفولية البريئة ، تعاوده ذكراها ، فتدمع عيناه ، وينزف قلبه للاماني المبددة اشتاتا ، والآمال الحلوة تذروها عواصف الزمن أشلاء ممزقة ، فتجمعها ريحه بعد حين ، وقد اعتدل نسيمها ورق هواؤها ، لتقدمها هدية الكهولة لتشارلز ديكنز .. رمز الكفاح والنضال . لقد تحققت آماله الكبيرة ، ومشت اليه الاماني عذبة جميلة .. ولكن .. هيهات ان يعود ما انطوى من زمن ، وما انقضى من صبا ، وما فات من شباب . لقد عاد الى مراتع طفولته الاولى ، بعد ان تحققت آماله كلها ، وقد غزا الشيب مفرقه ، ومشت الكهولة الى النفس والروح منه ، ودبت الى قلبه .. وحين رف نسيم عبر الحقول وقداعتل اصيلها ، يحمل اريج طفولته ، وعبق شذاها ، وعطر عبيرها ، انتفض القلب ينبض برعونة طفولية ، واهتزت النفس توقظ الروح لتأخذ نصيبها من نشاوى الطفولة المبكرة في طهارتها وانطلاقها عبر الحقول والبساتين الحبيبة الى قلبه ، تزرع بسمة هنا ، وترسل صيحة فرح هناك ، وفي هدأة الليل حين تسكن الحركة والضجيج ، وقد غفا كل ركن ، واتكأ كل حجر على ذكرى عزيزة .. ولمسة رقيقة .. وهمسة عذبة .

هذه البقاع ، التي كانت محبوبة ومألوفة لديكنز منذ أن أمضى فيها أسعد أيام طفولته .. لا بل أسعد أيام حياته اطلاقا ، قد أثارت في نفسه كل العواطف الكامنة في تعلقه الشديد بكل شبر من دروبها .. ودفعته الى رسم معالمها بالتفصيل ، دون ان يتعرض للاسماء قط ، في قصة « پيب » و « غارجري » في روايته « الآمال الكبيرة » .

لقد فكر ديكنز طويلا ، ولسنين خلت ، في احداث طفولته قبل أن يبدأ في كتابة روايته « الآمال الكبيرة » . لقد كان بعض هذه الاحداث موضوع روايتيه « داڤيد

كوبرفيلد » و « اوليفر تويست » . ولكنه الآن ، وهو مشغول باعداد قصره الريفي في هذه المنطقة بالذات التي شهدت أحداث طفولته الاولى .. تعاوده ذكرياتها .. حلوها ومرها تمر عبر خياله وأمام ناظريه كشريط سينمائي متكامل ، يشعر ديكنز بضرورة تسجيل أحداث طفولته وصباه كاملة في رواية كبيرة هي ، « الآمال الكبيرة » .

(ويتركز موضوع الرواية حول حياة صبي صغير « پيب » فقد والديه واخوته جميعا وعاش في كنف شقيقة قاسية « مسز غارجري » في دكان حداد هو زوج اخته « جو غارجري » . وفي أحد الايام قدم بعض الطعام وأداة حديدية لاحد المساجين الهاربين « ماغويتش » الذي حفظ معروف الصبي وتبرع بعد سنين ليكون الممول لتثقيف الصبي وتعليمه حتى أصبح رجلا محترما لا يمت الى دكان الحداد ، وتلك القرية الصغيرة ، بصلة. وفي الضاحية القريبة كانت تقطن في قصرها الكبير ، سيدة ثرية « مس هافيشام » هجرها الزوج في ليلة العرس ، فعاشت تغلق الابواب على نفسها حتى لا ترى الدنيا وشرورها . وقد كرست حياتها للانتقام من الرجال ، فتبنت فتاة جميلة « استيلا » ، كانت أداتها في الانتقام من الرجال .) .

وقد استهل ديكنز روايته بمنظر كنيسة القرية القديمة وقد قبعت وراءها المقبرة ، حيث جلس صبي صغير يبكي بين القبور وهو يجيل البصر حائرا بين مثوى والديه واخوته واخواته ، الذين رحلوا عن دنيا المتاعب ، وخلفوه وحيدا يعاني من قسوة اخته وسوء معاملتها الشيء الكثير . وفيما تسيل الدموع على صفحة وجهه أهاب به صوت مفزع مفاجيء : « اسكت أيها الشيطان الصغير أو اقطع عنقك » ، وارتجف الصبي البائس هلعا، واستدار ليجد رجلا مخيف المنظر ، قد استطالت لحيته وتمزقت ثيابه ، واستقرت حلقات حديدية حول قدميه تشي انه سجين هارب من السجن القريب في منطقة المستنقعات . فاذا ما عدنا لاحداث رواية « داڤيد كوبرفيلد » وقصة حياة بطلها الصبي الصغير ، وجدنا ان ديكنز عرض تاريخ طفولة وصبا داڤيد كأساس للرواية وتطرق في ختامها الى عقدة في طريقها الى الحل لم تكن هي الموضوع الرئيسي بقدر ما كان تاريخ الطفولة والصبا . اما في هذه الرواية الآمال الكبيرة » فقد كانت العقدة هي اساس الرواية التي تدور حولها الاحداث في تتابع أخاذ تحت تأثير عوامل الطفولة والصبا . لقد عرض ديكنز في معظم رواياته قصصا واقعية مألوفة في ظاهرها ، تتضمن في طياتها مقاطع نقدية ، واخرى اصلاحية ، استهدفت مشاكل الحياة والمجتمع بشكل عام . ولكن في هذه الرواية بالذات رواية « الآمال الكبيرة » كان الاختلاف واضحا الى حد ان اعتبرها النقاد كأحد التراجم لحياة كاملة .

ينمو « بيب » ويترعرع في « الآمال الكبيرة » ويتغير ويتطور ، في عرض جميل أخاذ قلما نجده في رواية اخرى ففي رواية « دافيد كورفيلد » ، مثلا نشأ دافيد وترعرع وتعلم من تجاربه المؤلمة كيف يتغلب على العقبات ، ويجابه المتاعب في هذه الحياة المعقدة . ولكن ديكنز طرق الناحية النفسية فقط ، فتحدث عن احاسيس الصبي دافيد وانطباعاته عن الاوباش والرعاع من الناس الذين صادفهم في حياته ، والذين خلفوا فيها آثارا متفاوتة ، ولكنها كانت انطباعات نفسية لم تؤثر على شخصيته البتة .. وهذه الانطباعات نفسها قد انتقلت الى القارىء عبر تصرفات دافيد ، فكانت تحمل روح الدعابة في في طياتها ، ولكنها في جوهرها لم تكن تستحق الذكر .

اما بالنسبة لرواية « الآمال الكبيرة » فقد صنفها النقاد والباحثون في سلسلة الدراسات الواسعة العميقة لقد اتخذت صبغة الدراسة الجدية العميقة لنمو الشخصية وتطورها . بينما نجد كثيرا من الميل نحو الكوميديا خلال عرض ديكنز للتطورات التي طرأت على ظروف دافيد وحياته ، وبينما تبدو الدراما واضحة جلية في رواية « الآمال الكبيرة » التي طرقت ناحية نفسية اجتماعية هامة . فكانت دراسة عميقة للوحدة الموحشة بأبلغ معانيها ومختلف اشكالها .. تعرض لها ديكنز بالبحث في صدق وتأثر بالغين . لقد رسم « الوحدة » البائسة في منظر بيب يبكي بين القبور الموحشة في مطلع الرواية . وعرج على قصر « مس هاڤيشام » ، وقد اغلقت نوافذه واسدلت ستوره لتمنع بعضا من خيوط الضوء او شعاع الشمس من تمزيق حلكته ، وتبديد ظلامه ، ليرسم ديكنز وحدة « مس هاڤيشام » الموحشة القاتلة بين جدران قصرها المهجور المهمل . ثم عرج الى عالم « ماغوتيش » في منفاه وبعده عن الوطن ، يحلم بولد يحسن تربيته وتعليمه ليصبح ساعده القوي ومؤنس وحدته في الحياة .. وحين يختار الصبي الصغير « بيب » الذي اسدى اليه معروفا في الماضي ، نجده يجازف بحريته وحياته ليمضي الى قربه فترة قصيرة تنسيه وحشة منفاه وبؤس وحدته . هذه

المواد التي كانت موضوع الواح ديكنز اللامعة استقاها من فيض ذكرياته ونبع تجاربه . كلا الصبيين « بيب » و « دافيد » انقذ من الفقر كديكنز نفسه ، ووجدا نفسيهما في ظروف واجواء جديدة لم يألفاها من قبل.. كلاهما كانت له متاعبه ، ما اتصل منها بتصرفاته ، او البيئة التي انتقل اليها . فدافيد لم يستطعنسيان الفترة البائسة من حياته حينما كان يجلس جنبا الى جنب مع ابناء سعداء في مدرسة الدكتور « سترونغ » ، حين لم يستطع نسيان اطفال الازقة في رثاثتهم ومستواهم الخلقي وهو يقارنهم ببيئته الجديدة وزملائه من ابناء العائلات المحترمة في نظافتهم واناقتهم وحسن تأديبهم .

لقد مشت الاحداث في حياة «بيب» جنبا الى جنب مع مثيلتها في حياة ديكنز .. الطفولة البائسة والوحدة الموحشة ذاتها في اطار واسم جديد .. المقاطعة ، المدن ، القرى ، كل ذلك كان حقيقيا في حياة ديكنز سكبه في حوادث ابطال رواياته .. الشعور بالغضاضة ، والتطلع الى ما بعد خط الافق المحدود ، صوره ديكنز وقد عادت به سني العمر الى الماضي القريب ، يرسم مشاعره وقد انثالت من اللاوعي وانسابت الى عالم الوعي العميق تجرف كل ما اختزنته اعواما طويلة .. فمحاولة ديكنز تثقيف نفسه في الامسيات الموحشة ، وتعلم الحروف وطريقة تركيب الكلمات واستعمالها ، كل ذلك انعكس في شخصية « بيب » ومحاولاته .. خروج « بيب » من نطاق القرية وجو دكان الحداد التي عافتها نفسه ، الى دنيا مغايرة تماما ، دنيا العلم والثقافة والمدنية ، لقد نجح « بيب » في الوصول الى المستوى الاجتماعي الذي تطلع اليه في حرمانه وبؤسه ، وكذلك ديكنز نفسه . وهكذا حقق ديكنز امنية عزيزة على نفسه ، فأرخ حياته بحبر الواقع الذي عاشه ، بنبض احاسيسه ، وفيض مشاعره ، بشخصية « بيب » في رواية «الآمال الكبيرة» .

وهكذا نستطيع القول ان الشخصيات الثلاث دافيد، اوليفر ، وبيب ، كانت ديكنز نفسه في وقت ما او آخر . وكذا المحامي « جاجر » في رواية « الآمال الكبيرة » كان واحدا ممن عرفهم ديكنز في ماضيه غاية المعرفة ، بل لعله المحامي الذي عمل ديكنز لديه . وذلك المجرم « اللندني » الهارب « ماغوتيش » ، لا بد وانه عاش في لندن ديكنز التي خبرها جيدا . وكذلك رئيس العصابة « فاغن » في رواية« اوليفر تويست » قد لقيه ديكنز في وقت ما خلال تشرده عبر احياء لندن القذرة القديمة .. وغير ذلك من شخصيات رئيسية او ثانوية هي جزء حقيقي من عالم ديكنز وحياته ، ندركها حينما نقرأ مؤلفات ديكنز ، او الكتب التي خاضت سيرته ودرست حياته.. او عندما نفكر في الاطفال الآخرين الذين عاشوا مثل ظروفه وخبروا احداثها .. اولئك الاطفال الذين تخلى عنهم آباؤهم واهلوهم ، كما جرى لديكنز الصغير ... اولئك الاطفال الذين واجهوا الفشل والبؤس في اوائل طفولتهم وبواكير صباهم ..اولئك الاطفال الذين ارغمتهم قسوة الحياة على الاحساس بمدى اختلافهم عن الآخرين اولئك الاطفال الذين انساقوا الى الكتب الرخيصة المبتذلة ، التي كتبت لمراهقين دون رقيب أو مشرف ناصح ، كملاذ في ساعات ضجرهم وملالتهم .. اولئك الاطفال الذين حرموا نعمة الامان في ظل الاسرة ، واجبروا على حمل مسؤوليات كبرى لعلها كانت تفوق مستوى تفكيرهم وعدد سني حياتهم .

واخيرا .. لقد كان ديكنز النموذج الحقيقي للرجل الذي استطاع ان يتطور من نموذج الطفل البائس الذي كانه ، ومن نموذج الطفولة التي قضاها ، خيرها وشرها ، الى النموذج المتكامل للرجل الناجح والمصلح الاجتماعي الكبير . لقد ساعدت طاقة الحنان والعاطفة التي فجرتها تجارب الحياة في نفسه ، ان تضفي من نفسه وذاته على حوادث رواياته ما استدر الدموع من المآقي لسوء الطالع الذي رسمه بدقة واتقان على ملامح شخصيات ابطال رواياته .. فكانت طبيعته العاطفية الفياضة التي برزت وتوضحت تحت وطأة التجارب المؤلمة البائسة لطفولته .. وتلك الوحدة التي رزح ديكنز تحت نيرها كل طفولته وجزءا من عمر صباه، رسمها فابدعرسمها.. لقد غمس ريشته في حبر وحدته لتخط ظلالا سوداء قاتمة قوامها من فتاتنفسه وذوب روحه ، لونتها اصباغ الوحدة البائسة ، وكآبتها وحلكة سوادها . فنجح ديكنز في رسم شخصيات رواياته بدقة الرسام واحساسه فكان رساما بغير ريشة .. ونحت تماثيل ابطاله في صدق وتعبير ، بأنامل الفنان ومشاعره ، فكان نحاتا بغير ازميل .

لقد تخطى ويكنز جميع العقبات التي اعترضت سبيل حياته ، فكان بؤس طفولته نقطة الانطلاق في حياته .. لقد نجح ديكنز في نزع الشوك عن دروب المجد ليصبح من كبار الادباء والكتاب الانكليز الذين اسهموا فيتشييد صرحالتراث الادبي خلال القرنالتاسع عشر .

هند ميرزا

أنت حلوة

شعر: فريد انطونيوس

أنت حلوة

حلوة كالقبل

كابتسام الأمل

أنت حلوة

أنت دنيا من صبابات وواحات ظليلة

أمها بعد عناءٍ شاعر ضلَّ سبيله

باحثاً عن وشوشات الدفء في عين كحيله

آه منك ، آه من عينيك ، من أشهى خميله

تغزل الأضواء والأطياب أهداباً طويلة

وصلاة وخموراً وحكايات جميله

أنت أحلى

من دموع السحر

في جفون الزهر

أنت حلوة

أيّ ليل قبّل الشعر وسوى منه غره

ترتمي فوق جبين يشتهي الزنبق طهره

أيّ شوقٍ داعب الخدّ وألقى فيه جمره

أي ساقٍ دغدغ الثغر وأبقى فيه خمره

أي سحرٍ أيقظ الصدر وأذكى فيه سحره

وتهادى فوق خصرٍ أشتكي لله أمره

أنت أبهى

من أضاميم الأقاحي

قطفت ذات صباح

أنت حلوة

املئي بالدفء دنيانا وبالعطر السكيب

اغرقي من سحر عينيك دمانا باللهيب

وازرعي الأشواق أنىّ شئت في كل الدروب

رفرفي فوق رياض الحسن باللحن الطروب

واسكبي في مسمع الأكوان شدو العندليب

حلوة أنت فدلّي وارقصي فوق القلوب

أنت أغلى

من شبابي وحياتي

أنت أغلى امنياتي

ياحياتي

أنت حلوة



شعر : سهيل عجي

مرة أخرى !
ننادي العالم الغارق في ليل الوحولِ
مرة أخرى نناديه !
وفي أحداقنا لون الأفولِ !
غدنا كهف ضباني ، شتائي الفصول !
جائع يلتهم الضوء وأهداب النهارْ
نابه تقطر كبريتاً .. وأفيونا ... وقار ...
غدنا ، مستنقع ضمّ بقايا !
أسنت من الف جيل .
نحن في أحشائه ، شلو مدمّى ! ...
مزّق في شدق غول !
مزق يغتالنا الرعب وأصداء العويل
غدنا موجة نار . ودماءْ !
والضحـــايا ؟ !
إيه سدّوم الجديدة !
الف سدوم جديدة !
عبر ليل الكهف تغتال الضحايا !
تمطر العالم ناراً ومنايا ! ...
كفّها السوداء ، تجتاح رؤانا ..
وهوانا .
الف سدوم جديدة !
عبر ليل الكهف تختال سعيراً ..
ودخاناً ! ..
والخطايا ؟ !
ايه سدّوم الخطايا !
أترى نبرأ بالنار ، نطهّرْ ؟

* * *

أترى تمنحنا النار الأمانا ؟ !
عالم يرقص في كف الجريمة
بقلوب بربريهْ !
ووجوه وشفاه غجرية !
يصلب الأطفال ، يغتال العذارى !
ويغني أغنيات وثنيهْ !
والعيون الحجريهْ .
مومياءْ !
ترمق المجزرة الكبرى ، بعين المومياءْ !
أترى لا يرتوي وحش الدماء ؟؟

* * *

عالم أرهقه الأثم وأضناه الدواءْ !!
مرة أخرى ، نناديه
وفي أعراقنا طعم البوارْ
أترى ينبثق الفجر ، ويندكّ الجدار ؟؟
أترى تشرق ياضوء النهار ؟!
مرة أخرى !
وينزاح الستارْ !! ..

سهيل عجي



ميمون القداح كما تصوّره المصادر

بقلم : مصطفى غالب

ميمون القداح هذا الداعي الكبير والفيلسوف العظيم ، الذي لعب دورا كبيرا في تاريخ الحياة الفكرية في العالم الاسلامي وواضع البذرة الباطنية الاولى في الاسلام • ثارت حوله عاصفة من النقاش التاريخي استمر حتى عصرنا الحاضر •

ولا تزال شخصيته الاسطورية موضع خلاف وجدل ونقاش بين الباحثين والمؤرخين لما يحيط بها من الخفاء والغموض ، وحتى الآن لم يقل فيها التاريخ كلمته الحاسمة •

وتشير المصادر التاريخية على أن اسرة ميمون القداح احتلت مكانا قياديا مرموقا في تاريخ الحركة الاسماعيلية في دورها الاول الذي يبدأ بالامام الخامس جعفر بن محمد الصادق ، وينهي بظهور الخليفة الفاطمي الاول عبيد الله المهدي في المغرب سنة ٢٩٦ هـ • وكان الائمة الاسماعيلية يعتمدون على أفراد هذه الاسرة التي قدمت لهم خدمات عظيمة • وكان مؤسس هذه الاسرة الداعي ميمون القداح أول من اتخذه الائمة المستورين حجة ونائبا لهم ، ويذكر التاريخ ان الامام جعفر بن محمد الصادق، وينتهي بظهور الخليفة الفاطمي ابن اسماعيل اول الائمة المستورين • وقيل أن ميمونا كان راوية للامام محمد الباقر وابنه جعفر الصادق ، وانه ينتسب الى عقيل بن ابي طالب ، وتقول المصادر الاسماعيلية انه يرجع في نسبه الى سلمان الفارسي ، ويعرف لديهم بميمون بن غيلان بن بيدر بن مهران بن سلمان الفارسي ، يكتنف تاريخ ولادته الغموض والابهام ، ولكن بعض المصادر تشير الى انه ولد في مكة وانتقل الى الاهواز ، وقيل أنه جاء من محل في الاهواز يدعى (قوزح عباسي) ونزل عسكر مكرم ثم ذهب الى ساباط أبي نوح ، ويذكر مؤلف كتاب زهر المعاني [1] أن الامام جعفر الصادق شاء ان يقيم لحفيده حجابا ومستودعا كما أوصى هارون موسى أن يقيم لولده كفيلا ، فأقام له يوشع بن النون سترا عليه وحجابا له ، فسلمه أعنى مولانا محمد بن اسماعيل الى ميمون بن غيلان قدس الله روحه فرباه وأخفى شخصه وهو ابن ثلاث سنوات مع ميمون القداح ، وهو كفيل له ومستودع أمره ، وميمون من أولاد سلمان ، وسلمان من اولاد اسحق بن يعقوب أهل الاستيداع والقائمين بالبلاغ والابلاغ ، أي أن ميمون وابنه عبد الله من بعده كانا حجابين ومستودعين لاسرار اولاد اسماعيل بن جعفر الصادق •

ويذهب بعض المؤرخين الى القول بأن ميمون القداح هو مؤسس الحركة الاسماعيلية وان أئمة هذه الحركة هم من ولد القداح ، وقال البعض الآخر أن ميمونا كان يهوديا ديصانيا عمل على تهديم الدين الاسلامي ونشر الزندقة والالحاد • وذهب آخرون الى القول بأن الخلفاء الفاطميين ينتسبون الى هذا الديصاني اليهودي •

لذلك رأينا ونحن الذين نملك أكثر من مصدر ينفي هذه الاتهامات ويلقي ضوءا ساطعا على هذه

---

(١) زهر المعاني للداعي ادريس عماد الدين القرشي ص (٤٧ — ٤٩) •

الاسطورة أن نورد النقاط الهامة التي أثيرت حول هذا الموضوع الشائك ونناقشها ، ومن ثم نعطي رأينا فيها على ضوء الواقع والحقيقة •

ان أقدم رواية عن مسألة انتساب الفاطميين الى ميمون القداح ، هي رواية أبي عبد الله محمد بن علي ابن رزام الكوفي • وقد وردت في كتابه الذي يرد فيه على الاسماعيلية ، ونقلها الينا ابن النديم في كتابه (الفهرست) وخلاصتها « ان عبد الله بن ميمون ، ويعرف بالقداح ، كان من أهل قوزح العباس بقرب مدينة الاهواز ، وأبوه ميمون الذي ينسب اليه الفرقة المعروفة بالميمونية ، التي أظهرت أتباع أبي الخطاب محمد بن أبي زينب ، الذي دعا الى الاهية علي بن أبي طالب ، وكان ميمون وابنه ديصانيين ، وادعى عبد الله أنه نبي مدة طويلة ، وكان يظهر الشعابيذ ، ويذكر أن الارض تطوى له، فيمضي الى أين أحب فيأقرب مدة، وكان يخبر بأحداث الكائنات في البلدان الشاسعة ، وكان له مرتبون في مواضع يرغبهم ، ويحسن اليهم ، ويعاونونه على نواميسه • وكان انتقل فنزل (عسكر مكرم) ، فكبس بها ، فهرب منها ، وصار الى البصرة ، فنزل على قوم من أولاد عقيل بن أبي طالب ، فكبس هناك ، فهرب الى سلمية بقرب حمص ، واشترى هناك ضياعا ، وبث الدعاة الى سواد الكوفة ، فأجابه في هذا الموضوع رجل يعرف بحمدان بن الاشعث ويلقب بقرمط ، وكان داهيا ، فنصب لدعوته عبدان صاحب الكتب المصنفة ، وفرق عبدان الدعاة في سواد الكوفة ، فأقام قرمط بكلواذى ، ونصب له عبد الله بن ميمون رجلا من ولده ، يكاتبه من الطالقان ، وذلك في سنة احدى وستين ومائتين » • وينقل الينا بعد ذلك ابن النديم أقوالا أخرى عن جهود الدعاة من بني القداح ، في خراسان وغيرها من المناطق والبلدان [1] •

هذه أقدم رواية تاريخية ينكر فيها نسب الخلفاء الفاطميين الى آل البيت ، ويرد الى ميمون القداح • وباعتقادي أن جميع الروايات التي وردت في المصادر التاريخية فيما بعد قد استقاها مؤلفوها عن رواية ابن رزام ، بقصد الطعن في نسب الاء الفاطميين • ولقد أكد ذلك المستشرق الروسي (ايفانوف)[2] •

ومع كل هـذا لا بد لنا من أن نستعرض بعض الروايات التي وردت في الطعن في نسب الخلفاء الفاطميين • ومنها ما كتبه أخي محسن ، وقد عاش في أواخر القرن الرابع في الطعن في نسب الخلفاءالفاطميين واعتبارهم ينتسبون الى ميمون القـداح المجوسي الديصاني • وما كتبه عبد القادر البغدادي المتوفي سنة ٤٢٩ هـ ، لمناسبة حديثه عن الدعوة الباطنية ، فهو يقدم ميمون القداح بن ديصان ، باعتباره مـن مؤسسي هذه الدعوة ، ويدعي أنه كان مجوسيا من سبي الاهواز ، وكان مولى لجعفر الصادق ، وانه رحل الى ناحية المغرب ، وانتسب في تلك الناحية الى عقيل ابن أبي طالب ، وزعم أنه من نسله ، ثم ادعى أنه من ولد محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، ثم دخل في دعوته الى دين الباطنية ، رجل من سواد الكوفة ، هو حمدان قرمط الذي تنسب اليه القرامطة ، ثم لما تمادت بهم الايام ، ظهر المعروف منهم بسعيد بن الحسين ابن أحمد بن عبد الله بن ميمون ابن ديصان القداح ، فغير اسمه ، ولقبه ، وزعم أنه عبيد الله بن الحسن بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق •

وهناك بعض الكتاب المتعصبين من السنة قـد أوردوا روايات أخرى قالوا فيها ان القـداح كان مجوسيا ، وهو جـد الخلفاء الفاطميين في المغرب ،

---

(١) كتاب الفهرست لابن النديم (طبع القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ) ص ٢٦٤ — ٢٦٦

(٢) راجع W. Ivanow. the Alleged Founder of ismailism p 3.

وأضافوا : وكان القداح كاذبا منحرفاً ، وهو أصل دعاة الباطنية .

ولكن المؤرخ المقريزي يخالف كل هذه الاقوال ويذهب الى الدفاع عن صحة نسب الخلفاء الفاطميين فيقول :

« قد وقفت على مجلدة تشتمل على بضع وعشرين كراسة في الطعن على انساب الخلفاء الفاطميين تأليف الشريف المعروف (بأخي محسن) يقول فيها بأن هؤلاء القوم من ولد ديصان الثنوي الذي تنسب اليه الثنوية ، وديصان هذا ولد ابنا يقال له ميمون القداح ، وكان له مذهب في الغلو ، فولد لهذا ابن يقال له عبد الله ، وكان عارفا عالما بجميع الشرائع والسنن والمذاهب. وولد لعبد الله هذا ابن يقال له أحمد بعد أن مات ، فقام ابنه أحمد هذا في ترتيب الدعوة وادعى بأنه من نسل محمد بن اسماعيل ... ويؤكد بأن عبيد الله المهدي أو محمد المهدي هو سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان الثنوي الاهوازي وأصلهم من المجوس ... ويرد المقريزي على هذا القول ، فيقول :

ان الائمة من نسل علي بن أبي طالب كان عددهم وافرا ، وكانت مكانتهم لدى الشيعة على جانب عظيم من التقدير والاحترام فما هي الاسباب التي جعلت شيعتهم يعرضون عنهم ويدعون لابن مجوسي أو لابن يهودي ؟ فهذا لا يمكن أن يقدم عليه انسان مهما كانت درجته من السخف والجهل ، ولكن هذه الاشاعات ظهرت عندما تداعت الدولة العباسية وضعف مركزها وأصاب خلفاءها الانقراض والتفكك بعد أن حكموا نحو من ٢٧٠ سنة .

وعندما عجزوا عن مقاومة الفاطميين والوقوف في وجههم أثناء احتلالهم بلاد المغرب ومصر والشام وديار بكر والحرمين واليمن وخطب لهم في بغداد عمدوا الى الطعن في نسب الائمة الفاطميين ليسودوا صحائفهم ، وليجبروا الناس على كراهيتهم ، وان القضاة الذين سجلوا شهادة الطعن على السماع في بغداد كانوا من ألد أعداء الفاطميين ، ومن أخلص شيعة بني العباس ، ولم يعرف عنهم التجرد والنزاهة والصدق بل اشتهروا بكراهيتهم وبغضهم ونقمتهم على آل علي بن أبي طالب منذ ابتداء الدولة العباسية ، فتآمروا عليهم وطاردوهم وبطشوا بهم أينما وجدوا ، لذلك قرر الائمة الفاطميين أن يستتروا عن أنظارهم وهكذا كان[1] » .

ويعلق المؤرخ ابن الاثير على انتساب الفاطميين الى ابن يهودي فيقول : « يا ليت شعري ما الذي حمل أبي عبد الله الشيعي وغيره ممن قام في اظهار هذه الدعوة ، ليخرجوا الامر من أنفسهم ويسلموه الى ولد يهودي ؟

وهل يسامح نفسه بهذا الامر من يعتقده دينا يثاب عليه ؟ وان كتاب المعتضد الى عماله حجة كافية على صحة نسب الخلفاء الفاطميين . » ويقول ابن خلدون[2] : « ومن الاخبار الواهية ما يذهب اليه الكثير من المؤرخين في (العبيدين) خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة من نفيهم عن أهل البيت صلوات الله عليهم ، والطعن في نسبهم الى اسماعيل الامام بن جعفر الصادق ، يعتمدون في ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس تزلفا اليهم بالقدح فيمن ناصبهم وتفننا في الشمات بعدوهم حسب ماتذكر بعض هذه الاحاديث في أخبارهم ، ويغفلون عن التفطن لشواهد الواقعات ، وأدلة الاحوال التي اقتضت خلاف ذلك من تكذيب دعواهم والرد عليهم ، فتوصل شيعة آل العباس عند ظهورهم الى الطعن في نسبهم ،

---

(١) اتعاظ الحنفا (ص ٨٤٠ — ٨٩ — ٩٠) ابن الاثير جـ ٨ ص ١٩ — ٣٢ — ٣٤

(٢) مقدمة بن خلدون ص ١٥ — ٢٠ واتعاظ الحنفا ص ٦٠ — ٦٥ نقل النص من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر .

يصحبه في جولاته ، وكان الباقر عليه السلام اذا سار وازدلفوا بهـذا الرأي القائل الى المستضعفين مـن خلفائهم ، وأعجب به أولياؤهم وأمراء دولتهم المتولون لحروبهم مع الاعداء يدفعون به عن أنفسهم معرة العجز عن المقاومة والمدافعة لمـن غلبهم على الشام ومصر والحجاز ، من البربر الكتاميين شيعة (العبيدين) وأهل دعوتهم ، لقد سجل القضاة ببغداد نفيهم من هذا النسب ، وشهد بذلك من أعلام الناس جماعة منهم الشريف الرضي ، وابن البطحاوي ، ومن العلماء أبو حامد الاسفرائيني ، والقدوري ، والصيمري ، وابن كناني ، والابيوردي ، وأبو عبد الله بن النعمان ، وغيرهم من أعلام الامة في بغداد في يوم مشهود سنة ٤٠٢ هـ في أيام الخليفة العباسي القـادر ، وكانت شهادتهم في ذلك على السماع ، لما اشتهر وعرف بين الناس ببغداد وغالبها شيعة بني العباس الطاعنون في هذا النسب ، فنقله الاخباريون كما سمعوه ، ورووه حسبما وعوه ، والحق من ورائه ، وفي كتاب المعتضد في شأن عبيد الله الى ابن الاغلب بالقيروان ، وابـن مدرار بسجلماسة ، لاصدق شاهد وأوضح دليل على صحة نسبهم فالمعتضد أعرف بنسب آل البيت من كل أحد ، والدولة والسلطان سوق للعالم ، تجلب اليه بضائع العلوم والصنائع ، وتحدى اليه ركائب الروايات والاخبار ، وما نفق فيها نفق عند الكافة ، فان تنزهت الدولة عن التعسف والميل والسفسفة ، وسلكت النهج الامم ، ولم تجر عن قصد السبيل نفق في سوقهـا الابريز الخالص ، واللجين المصفى ، وان ذهبت مع الاغراض والحقود ، وماجت بسماسرة البغي والباطل ونفق البهرج والزائف ، والناقد البصير ، قسطاس نظره ، وميزان بحثه وملتمسه » •

ولقد بذلت في العصر الحاضر محاولات عديـدة لاثبات نسب أئمة الاسماعيلية الى ميمون القداح ، ونشرت حول ذلك كتب ومقالات كثيرة حاول أصحابها استعراض ومناقشة بعض النصوص الاسماعيلية التي خرجت الى الوجود ، بعد أن عاشت طويلا في طي الستر والكتمان •

وبالرغم من أن تلك الكتابات لاتختلف في جوهرها عن الروايات السابقة ، ولـكن ما كتبه البروفسور (ايفانوف) المستشرق الروسي المعروف يستحق عناية كبيرة لما تضمنه من حقائق ثابتة ، وحجج منطقية سليمـة •

لذا رأينا أن نستعرض بعض ما كتبه ايفانوف حول ميمون القداح وأسرته ، وخاصة النتيجتين اللتـين توصل اليهما ، وهما :

١ ـ ان ميمون القداح وولده عبد الله لم يكونا أصل الفاطميين ، ولم تجمعهما بهما أية صلة رحم •

٢ ـ انهما لم يكونا ديصانيين ، أو زنديقين ، بل كانا بالعكس فقيهين ورعين ، وان الدعوة السريـة الالحادية التي تنسب اليهما لم تكن الا من نسج الخيال •

ويرى ايفانوف أن الخلفاء الفاطميين قد أخفـوا أنسابهم ، وفروع ذوي قرباهم ، خوفا من أعدائهم في البلاد الخارجة عن سلطانهم ، على أولئك الاقربين ، وان قصة ميمون القداح وولده هذه ، ما هي الا اسطورة وخرافة •

ويورد الاستاذ ايفانوف الاحاديث التي وردت في كتاب (الكافي في علم الدين) برواية عبد الله بن ميمون، ووالده ميمون بن القداح • والاحاديث التي رواهـا عبد الله منسوبة الى والده ميمون ، وعددها مائـة وخمسون حديثا ، منها مائة وثلاثون ، نقلت من كتاب الكافي ، والباقية نقلت من كتاب (تهذيب الاحكام)[1] •

ومن الاحاديث المذكورة يتوضح أن ميمون القداح كان على صلة بالامام محمد الباقر ، وهناك ما يدل على أنه كان ضمن خدم أسرة الامام ، وكان الامام الباقر

---

(١) Rise of the Fatimido By. W. Ivanow p. 128.

استند الى ابن القداح ، ويستدل ايفانوف على ذلك ، ما ورد في الحديث الرابع ، حيث يوصف ميمون القداح صراحة بأنه (مولى) الامام محمد الباقر ، وغلام الامام جعفر الصادق • ويستدل ايفانوف أيضا ببعض الروايات السنية التي تصف عبد الله بن ميمون بأنه (مولى الامام جعفر الصادق[٢]) هذا من ناحية ومن ناحية ثانية ينفي ايفانوف تهمة الالحاد عن عبد الله ابن ميمون ، ويستدل على ذلك بأن اسمه ورد في كتب الحديث السنية ، مثل ابن النجار المتوفي سنة ٦٤٣ هـ ، والذهبي المتوفي سنة ٧٤٨ هـ ، وابن حجر المتوفي سنة ٨٥ هـ ، وعبد الله الخزرجي الانصاري المتوفي سنة ٩٢٣ هـ ، ولم تنسب اليه في كتب السنة ، أية دعوى بالالحاد أو الزندقة ويصفه أكابر رواة الحديث السنيين بصفات مختلفة من ضعيف ، وسقيم ، وراوية لاحاديث مدخولة ، أو أمور منكرة ، ولكن لم يرمه أحد منهم بشبهة الالحاد[١] •

ومن ثم يستنتج ايفانوف ، أن ميمون القداح كان من الموالي ، وكان مقيما بمكة وله أهمية محلية ، وكان خادما مخلصا للامام محمد الباقر ، ثم ولده جعفر الصادق ، ومن الممكن أنه كان تاجرا ، وربما كان أيضا مشرفا على أملاك الائمة بمكة • وقد كان فيما بعد رجلا ذا شخصية • وكان له عدة أولاد منهم عبد الله ، وابان ، وربما ابراهيم • وكان ولده ابان عالما يحفظ القرآن ، وليس من المستحيل ان كان أخوه عبد الله معلما للكتابة ، وانه دون خلال خدمته للامام ما سمعه منه • وان مجهوده فيما يبدو ، كان منحصرا في تدوين الاحاديث التي سمعها من الامام جعفر ، وليس هناك ما يدل على أنه كان مشتركا في أية حركة الحادية • ومما لا شك فيه أن المصادر الخصيمة للاسماعيلية قد صورت ميمون وابنه من الابالسة في الالحاد والكفر ، وانه لا محل لنقد مثل هذه الرواية ، ولا داعي لان يهتم بما هو خيال واضح • وخصوصا لما يتضمنه ذلك من تناقض في التواريخ • ومن مبالغات واضحة • وينفي البروفسور ايفانوف أن ميمونا قد ألف كتابافي نصرة الزندقة ، وكل ذلكروايات وأكاذيب لا تستحق الجدل[٢] •

ومن المصادر التي أوجدها خصوم الاسماعيلية ، والتي ينسبون ميمون وولده عبد الله الى طائفة (الديصانية) النصرانية ، وهي التي قام بتأسيسها الحبر برديصان في مدينة الرها في القرن الثاني من الميلاد ، وهو الذي يرى البعض أن نظرياته كانت أصل (المانوية) • ويقولون ان ميمون وولده كانا من الديصانيين أتباع هذه الطائفة •

كما وان المصادر السنية تشير الى أن شخصا كافرا ، يدعى أبو شاكر الديصاني ، كان يتصل بالامام جعفر الصادق ، ويسأله أسئلة عن الله وعن قدرته • وقد ذكره ابن النديم بين العلماء الذين يتظاهرون بالاسلام في قلوبهم[٣] • وأما الاسمان الديصانيان في أحاديث الشيعة فهما : عبد الله الديصاني ، وعبد الله بن ميمون الديصاني ، وأبو شاكر الديصاني ، وأبو شاكر ميمون الديصاني ، فلو فرض حقا أن ميمون وولده كانا في الاصل ديصانيين ، فانه لا يعقل أن يكونا كافرين ومسلمين في وقت واحد • والواقع أن هنالك من الاحاديث المشار اليها ما يدل على أن ميمون كان مولى للامام محمد الباقر ، وأنه يروي أحاديث عن هذا الامام ، وأن ابنه كان يتلو القرآن عليه ، ويروي ولده الآخر عبد الله عنه الاحاديث ، فلا بد اذا أن يكون ميمون وولده قد اعتنقا الاسلام عندئذ ، وذلك في القرن الاول من الهجرة • ومن ناحية أخرى ، فان هنالك من الاحاديث ما يدل على أن ذلك قد حدث أيام الامام جعفر الصادق ، وقد توفي هذا الامام ، وفقا لرواية هشام بن الحكم في سنة ١٩٩ هـ ، وهذهمفارقة

(١-٢) The Alleged Founder of ismailism. Ivanow. p. 78 . 79.

(٢) المصدر نفسه ص (٨٠ — ٨١) •

(٣) الفهرست لابن النديم ص ٤٧٣

تاريخية ظاهرة ، واذن فليس هنالك بلا شك علاقة بين الديصانيين وبين ميمون وولده . أما هذا الجمع في الاسماء فلا بد أنه محاولة زائفة ، ترمي الى جعل ميمون وولده ، هما أبو شاكر الديصاني وولده .

والخلاصة ان الاحاديث الشيعية ، لا تذكر شيئا عن أصل ميمون الديصاني ، بل بالعكس تدل على أنه حتى لو كان ميمون قد تحول من هذه الطائفة الى الاسلام ، فانه كان مخلصا ورعا[٤] .

وبعد كل هذا العرض يؤكد ايفانوف أن هذه القصة التي تجعل ميمون القداح جد الخلفاء الفاطميين، انما هي اسطورة سخيفة ، ويعيب على المؤرخين أمثال فون همر ، ودوزي ، ودي خويه ، كونهم صدقوها ، وآمنوا بها .

ومن ثم ينفي ، أن ميمون وولده ، قد اختير أحدهما مستودعا للامام ، لان مثل ذلك النظام ، لم يكن موجودا في وقتها ، ولم تعرف هذه النظرية الا في القرن الرابع الهجري .

ويختتم بحثه بقوله : (ان هذه الملحمة الالحادية التي نسجت حول اسم عبد الله بن ميمون القداح ، ليست الا معتركا من الاكاذيب والاقوال الباطلة ، وليست الا من صنع الخيال[١] .

ونحن وان كنا نؤيد البروفسور ايفانوف في بعض ماذهب اليه ، ولكننا نخالفه في قوله بأن نظرية الامام المستودع لم تكن معروفة الا في القرن الرابع الهجري ، لان المصادر الاسماعيلية القديمة تدل دلالة واضحة على أن نظرية الاستيداع عرفت لدى الاسماعيلية منذ القدم كنظرية أساسية تتعلق بصلب التنظيمات السرية ، فهم يعتبرون أولاد اسحق أئمة استيداع كما يذكرون في كتبهم أن هذه النظرية كانت معروفة في عهد هارون حيث أوصى موسى بأن يقيم لولده كفيلا ومستودعا ، فأقام له يوشع بن النون سترا عليه وحجابا له .

وفي نهاية المطاف لابد لنا من الاشارة الى الاسطورة الجديدة التي أوردها عارف تامر في كتابه (القرامطة) تحت عنوان اسطورة ميمون القداح .

وخلاصة اسطورة التامر أو بالاحرى خرافته قوله: « بأن محمد بن اسماعيل عندما فر من المشرق واتخذ من تدمر السورية مركزا لنشاطه سمى نفسه (ميمون) والقداح ، أي طبيب العيون ... ومهما يكن من أمر فان أسماء الحسين الاهوازي ، وسعيد الخير وغيرها من الاسماء التي اتخذها الائمة الاسماعيليون حتى لا يعرضوا أنفسهم للخطر ..[٢] » . ونحن اذ نستغرب أن يطلع علينا مؤرخ كالتامر بمثل هذه الاسطورة الجديدة لنضيفها الى الاساطير السابقة ، وهو المختص كما يدعي بالدراسات الاسماعيلية . فهو هنا يحكم على شخصية ميمون القداح وأسرته التي تجمع المصادر الاسماعيلية على أنهم تسنموا مراكز قيادية خطيرة في تنظيمات الدعوة السرية بالاعدام ، ويعتبرهم أشخاص خياليين لا وجود لهم في التاريخ ، بدون أن يكلف نفسه بدعم اكتشافه هذا بأي مصدر تاريخي .

لذلك يمكننا أن نضيف أسطورته هذه الى الاساطير الخيالية السابقة التي لا تستحق الجدل والمناقشة لتفاهتها ، وتناقضها مع الواقع والحقيقة العلمية .

والخلاصة كان ميمون القداح فيلسوفا وعالما من أنبغ علماء عصره ، ومن أعظم منظمي الدعوة الاسماعيلية، وعلى يده ازدهرت الحركة الاسماعيلية في دور الستر الاول ، ومن الارجح أنه استقر في سلمية في أواخر حياته وعكف على التأليف والتصنيف ومات فيها في نهاية القرن الثاني للهجرة ودفن في مقام الامام اسماعيل. ومهما اختلف المؤرخون والعلماء في تحليل شخصية هذا الداعي الكبير فلم يكن سوى خادم أمين لامامه ولدعوته .

---

(٤) The Allcged Founder of ismailism. p99-103

(٢) القرامطة . عارف تامر ص ٨٦ — ٨٧

(١) The Alleged Founder of ismailism. p. 170-174.

زهرة حزينة

* شعر: صباح الدين كريدي

أللبحر ما أعطي ! أللبحر ما أرى
أفي الرمل ما أبني ، أبالريح ما أهوى

تشوّق قلبي لون بعض سواحل
وحطمت في الأمواج مجدافي الأقوى

إليها ، للحن يخصب المحل عنده
وتورق في الأغصان ، من وقعه ، النجوى

إليها . . لقبض الريح ، ما ضمّخ الهوى
ملاعب أطفال ، وترنيمة نشوى

إليها ، إليك أيها الصحو غاءماً
ويا صمت ثغر آده الصمتُ ان يغوى

وبحر الهوى هلاّ عرفتِ دواره
وهزّك وسعُ البحر ، والبحر لا يُطوى

أضعنا كلانا في الطواف سنيننا
وما كان أغنانا عن البوح والشكوى

فلا عذر أنّا غيمة ملؤها الأسى
ولا عذر أنا صرخة الحزن والبلوى

كتمت بصدري كل شيء أريده
وحمّلتُ حرفي من معانيّ ما يقوى

وأنتِ ، كما في الجزر ماءٌ وخضرة
وتفتيح أزهار ، وإشراقة تُهوى

ومرّت ليالٍ دون أن نوقد الهوى
شموعاً ، وأن يزهو بأفراحنا المأوى

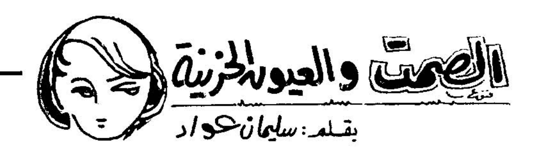
زرعنا بأيدينا الهمومَ وأننا
لنجمع زهر الحزن ، من دون ما جدوى

حرمنا حياة أن تعانق نفسها
وأن تصخبَ الأمواجُ ، والصخر أن يُلوى

وللبحر ما أعطي ، وللبحر ما أرى
وفي الرمل ما أبني ، وبالريح ما أهوى !

تغيم بعيني كلُّ رؤيا جميلة
وتكتم خفقَ القلب خلجانه القصوى

اعزاز — صباح الدين كريدي



قيل لراعٍ هرم : لو طلب اليك أن تعود في العشرين من عمرك ، فماذا تختار ، ماذا ترغب في الحصول عليه •••

أجاب : لا أطلب سوى الحب •

ـ ولكنك شبعت من الحياة ، وارتويت من عصير الحب ••

ـ اثنان لايشبع القلب منهما : الحياة •• الحب!!

أتصور نفسي عائدا من المرعى كل مساء ••

رافعا أغنياتي المبللة بحسرات الشباب ••

وحبيبتي المعذبة تنتظرني عند ضِفّ الحقل ••

•• وياما كنت أعانق القطيع حين كان يبدو لي طيف حبيبتي ••

ـ وعلى أي حسرة تموت ؟ !

ـ أموت على انني لم ضم الحبيبة الى قلبي ، في قبلة ، تذوب لها روحي ، وتنسرح في اللانهاية فراشة من نار •••

ـ ولم ••• لم تعانق الحبيبة ؟••

ـ كنت أخاف أن أجرح شعورها ••• ولكنها تزوجت في النهاية من انسان آخر •• لقد أعطته جسدها •• اما قلبها فبقي لي •• بقي لي وحدي••

وعندما كنت أترنم بمزماري ، كنت ألمح دموعا تنسفح على خديها الشاحبين •

انها تتذكر صباها ، وايامنا الحلوة التي كنا نقضيها في المراعي والحقول وفي أعراس القرية •

ـ وماذا بقي لك من هذا الحب ؟••

ـ بقي العذاب الصامت ••• وبقيت الذكرى ••

آه الذكرى ، انها طفلتي الصغيرة المدللة ••

انها سوسنة المراعي الخضراء ••

انها مزماري الوحيد الذي سيذهب معي الى القبر••

وحين اسجَّى في التراب ••

ستزهر أغنياتي أقحوانا ••

وسيعلو مزماري شجرة صفصاف عالية ••

شجرة ، كالدهر ، لاتعرف الذبول ••

آه •• أيتها الذكرى ، ياطفلتي المدللة ••

التي أرى في عينيها الحزينتين صورة أمها ••

أمها التي انطفأت من حياتي الى الأبد !!••

وفي حدود النظر ، حين تمر القوافل والقطعان، سأرنو من وراء القبور ، علَّني أشتم من روائح الغبار أغنية كنت أغنيها لحبيبتي •



وأنت أيها القلب ، ياعاصفة من الخناجر ••

في حياة الشاعر المنكسر الحزين ••

أنت عاطل عن كل حلية • أنت قبطان بحري غرقت سفينته ولم يبق له سوى بذلة ممزقة ••

عليها صورة (لنياشين) قديمة •••

أنت ورقة من كتاب ثمين ••

وقع في يد بائع حلوى ..
فصارت أوراقه ملفاً للأطفال الصغار من المشترين..
وأنت أيتها الروح ..
انك شبيهة بالمعابد التي تفوح منها روائح القدم.
والتي تضفي على الزائرين شيئا من هيبتها وقدسيتها
لكنها لاتستطيع أن تعيد لنفسها ..
صورة أمجادها الغابرة ...
أو انك شبيهة بلوحة تجريدية مبهمة ..
كل من يراها ، يفسرها على هواه ..
لكن أحداً لايعرف سرها ، ولا يدرك كنهها ..
غير قلب الفنان الذي سكب نفسه
في خطوطها ، وظلالها ، وألوانها ..
وأنت أيتها العيون الحزينة التي أغنيها ...
ياطريقي الى هيكل الفن الخالد ..
ياوسيلتي الى الانعتاق من اسار التراب ..
قد تكونين لي جرحاً يقطر مدى الحياة ..
أو تمثالا مبللا بالدموع ..
أو زهرة تعيش هنيهة ، ثم يطويها العدم ..
وقد تكونين لي سفينة أبحر عليها ..
الى عوالم جديدة ،
لكني أحس ان الغرق ينتظرني في أول الطريق..
كوني كما تريدين ، أيتها العيون الحزينة ..
التي تتوغل نظراتها في قلبي ..
كنهر من القلق ، والحيرة المتوسلة ..
أو كسرب من الأجنحة والخناجر ...
واتركي لي شيئا من روحك ..
انني متعب ..
علّني أستوحي من عينيك الحزينتين ، أغنية
قد تكون سلوى ، وعزاء ، للقلوب المنكسرة ...

سليمان عواد

من مجموعة (أسماك لطيور البحر) المعدة للطبع

ضاع لي قمر

شعر: وهيب دياب

منذ بضعة أشهر ، وخلال مدة احتجاب الثقافة فجع الشاعر وهيب دياب بابنته التي توفيت في فينا وهي في عمر الزهور فكان لهذه الفاجعة الأليمة أثرها في نفس الأب المفجوع وهذه القصيدة يقدمها الى صديقه الشاعر الدكتور عمر النص .

يا أخي عمر … ضاع لي قمر
كاد لطفه … ينطق الحجر
كان ساحراً … يغزل السير
صبحه منى … ليله سمر
ضاء تسعة … ليته عشر
أي كوكب … لاح واستتر
في جوانحي … نفحه العطر
حسن وجهه … كله صور
فيه جاذب … يسكر النظر

يا أخي عمر … شاقني القمر
كان ضوءه … عيشنا الأغر
طال بعده … كيف أنتظر!
ما مصيره … أين يستتر ؟
من أطاحه … أي مقتدر ؟
راب خاطري … خير من مكر
هاجت النوى … وجد مصطبر
أججت لظى … ترهب السعر
بالذي نأى … كدت أختصر
كدت صحت مه … ويحك الحذر
يمم الذرى … واسأل الخضر
ربما الألى … أطلع الأخر
أين التقي … صانع القدر ؟

رحت للذرى … حائر الفكر
سرت كلما … سرت قيل سر
والسرى على … موحش بسر
مرعب دو … يقذف الشرر
مده سدى … قصة العصر
ومضه سنى … يخطف البصر
أرضه لظى … بنتها سقر
نبتها شبا … عشبها دسر
وي لمن مشى … ويل من عثر
إنه مدى … فيه يحتضر
كل خطوة … منه في خطر
رحت هائماً … أسأل البشر
لم أجد سوى … مدنف سدر
ردّ هامساً … يا أبي انتظر
عندنا هنا … أعتق السكر
حانة الثرى … تحتها حجر
لم أقل حجر … إنها حفر
في ضلوعها … أودعت سرر
صفها الردى … لا تقل هذر
ذلّ من صحا … جلّ من سكر
صاحب الحجا … عمره كدر
كل حادث … فيه مستطر
كل سارب … أمره قدر
واحة النهى … راحها صفر
بيننا فتى … اسمه الخضر
كلّم الحصى … والرؤى عبر
طيب الثنا … طاهر الأزر
أمس يا أبي … قمة الوزر
راحها الفتى … جاوز السدر
صارها دجى … مزق الستر
كان ثائراً … كاد ينفجر
عاتب الحمى … أنّب الخفر
زلزل الثرى … روّع السحر
صاح بالسما … أيها النذر
ويكمو اسألوا … حاكم الجزر
أي ظالم … يوعب البكر
يفزع الندى … يزجر المطر
يعقر الضحى … يزرع الكدر
أي آثم … يقتل الثمر
من دروبنا … ينسل الشجر
من سمائنا … ينشل الدرر
ويك يا أذى … كف لم تذر
ما عذابنا … كيف نغتفر ؟!
أي جنة … عنك تعتذر ؟!
من دموعنا … تجمع النهر ؟
يا لكوثر … ماؤه انهمر
من عيوننا … كيف ينتظر

هكذا الخضر … خاطب الغير
وانثنى وفى … كهفنا انحدر
إنه هنا … تحت والنفر
شارب بنا … يمضغ الخبر
أمّنا ضحى … تسع أو عشر
ثم قال هل … تكذب الفكر
قول لا إلا .. … ههنا هدر
تلك جملة … لست أذكر
كيف قالها … كنت في خدر
أطرق الفتى … بعدها ابتدر
فوق غارنا … مبهم نكر
عابث بنا … ليس يزدجر
غير آبه … هكذا فطر
كل فعله … ضد ما أمر
غيبنا مدى … نيله عسر
كل مدّع … مفتر أشر
وردنا مضى … من رأى الصدر
ريحهم نأت … رسمهم دثر
اخوة الأسى … دهرنا حسر
والردى غداً … يختم السفر
ينطوي الدجى … تخفت الزهر
تمحي الرؤى … تنتهي الغمر
إن سيدي … خالق الوتر
ناشر الشذا … بارئ الزهر
كيف يستوي … مسعد البشر
والذي مضى … يزرع الكدر؟

عدت يا أخي … عدت وانكسر
خاطري الذي … جرحه نغر
لو رأيته … خلته كفر
شفني الضنى … هدّني السهر
والسرى إلى … حومة الغرر
أسأل الملا … أسأل الحجر
حائر أنا … أيهم غدر
إن سألت من … عنده خبر ؟ !
ردد القضا … ردّ يا قدر
كل ليلة … مركب أمر
ألف رحلة … اتبع الأثر
اقتفي خطى … سارق القمر

وهيب دياب

حلبُ ، ومن اسمائها الشهباءُ
صَدَقت بها الأفعال والأسماءُ

حلبُ ، ويصطفق القريض ، فههنا
تيهٌ يضجُّ ، وههنا خُيلاءُ

من عبقريتها ، ومن الهامِها
يتفجر الألهامُ والإيحاءُ

نزلت على التاريخ ، فهيَ خميلةٌ
ملتفَّةٌ برجالها غنّاءُ

عبقُ القرائح - زهرُها وعطُورهَا
خيرُ العطور قرائحٌ عصماءُ

هبّت على الدنيا ، فطيِّب عرفُهَا
ريحُ الحياة ، كأنّها الزهراءُ

من كان يعرف للبلاغة معشراً
لو لم يعش بفنائها البلغاءُ

وحمت بطولتُها الثغورَ ، فعزمةٌ
تشوي النفوس ، وشدّةٌ حمّاءُ

عَرفت بلادُ الروم ، ايُّ مثقفٍ
نمّت عليه ، عزيمةٌ ومضاءُ

عَطِش إلى ماءِ النحور ، وماجرت
إلاّ عليه من النحورِ دماءُ

سقط «الدمستق» من وميض بريقِهِ
وعرته منه هزيمةٌ نكراءُ

واستسلمت هلعاً «مَلَطْيَةُ» عندما
نسفت ملطيةَ غارةٌ شعواءُ

وهوى «المبرقعُ» بعدما نهدت بِهِ
في حمص اجنحةٌ ورفَّ لِواءُ

فسلوا أبا تمام : أيُّ رواية
للسيف ماصدقت بها الأنباءُ

★ ★ ★

حلبٌ وقَصّرَ عن مدى امرائها
مهما سما الحكّامُ والأمراءُ

حمدان — وهو يطل من ايوانه —
عزمٌ اصمُّ ، وطلعةٌ غرّاءُ

يتجمل التاريخ في ابنائه
ذكت الأبوّةُ فيه والأبناءُ

الطالعين على الحياةِ كَواكِباً
من دونها المريخُ والجوزاءُ

سل من «ابي منصور» أيُّ شمائلٍ
راحوا بها في العالمين وجاءوا

حملت «يتيمته» كنوز صِفَاتِهِم
هم في يتيمته يدٌ بيضاءُ

جمعوا الفصاحة والرجاحةَ والعلى
فهُم لكلِّ دُجُنّةٍ اضواءُ

وحلفت ماعرف الزمان كسيفهم
سيفاً يكون النصر حيث يشاءُ

الملهم الشعراء كل قصيـــدة
لولاه لم ينطق بهـــا الشعراء
كذب المعري ، ما لأحمدَ معجزٌ
لو غير سيف الدولة المجزاء
لو لم تكن حلبٌ هنالِكَ قَصْدَهُ
ضَلَّ السبيلَ ، وعاقَهُ الأسرَاء
ولضَلَّ عن قصدِ السبيل فؤاده
عجزاً ، وخان لسانَهُ الأنشاء

★ ★ ★

حلبٌ . وحسبك لابن عباد بهَا
وابن العميدِ إفَاضَـــةٌ وعطاء
حفلت مجالسُهَـا بكل مفكّرٍ
حلو اللسان ، كأنـــه النعماء
القى « الخوارزميُّ » فيها رحلَهُ
وعصاه ، إذ ضاقت بِهِ الفيحاء
وكأنما انف الحيـــاة بغيرها
والسامرين - رفاقُــه الأدباء
لولا الأباء بهـا لأنكر نفسه
كبرٌ بغـير رجالهـــا واباء
من غير شاعِرهَا وشاعر سيفها
تعنو له ولسيفـــه الهيجـاء
المستهينِ بآسِـــريه ، كأنهم
رغم القيود ، هُمُ هُمُ الأسـرَاء
والمنزل الطير المحلقَ شـدوُهُ
من بعد ما انفتحت له الأجواء

لا . لم يقل : ان الفتوة ميعةٌ
عند الشباب، ولا الصِّبَا استخزاء
ان الفتوَّةَ والشبابَ ، عَزَائمٌ
وعَظَائمٌ يحيا لَهَـــا العظماء
لولا مناحاتُ العجوزِ بمنبجٍ
لم يشكُ ما فعلت به الأعـداء
مرحى ، فما كأبي فراسٍ شاعِراً
غردٌ ولو نزلت بـه اللأواء
يعصي الدموعَ فما تهلُّ بجفنهِ
كبراً ، فكلُّ دموعِهِ خرساء

★ ★ ★

مرحى لصانعة الرجال ، تعلقت
بسيوفِهَـــا الحرِّيَّةُ الحمراء
الوارثين المجـد من اطرافِـهِ
والمالكين من العُلى ماشاءوا
بالأمسِ علمَّنَـــا هنانو أنّه
لم يحيَ في كنفِ العلى الجبنـاء
عرفت فرنسة ان ثورتـه لَظى
وَهِيَ الهشيمُ ، فما لَهَـا اطفاء
من ابصر الأسد الغضوب وحولَهُ
فوق الثرى تتنـاثر الأشـلاء
لا يكذبُ الجبلُ المطلُّ على الذرى
فسلوه : كيف تساقط الشهداء
مهر الضحايا بالضحايا ، وانثنى
منـــه أمَامٌ ظـافِرٌ ووراء

العبقرية في الرجـــال ارادة
جبّـارةٌ ، وعزيمـــةٌ قعساء
وورود اسباب المنايا ان دعا
قـدرٌ لملحمةٍ وحمٌ قضـــاء

★ ★ ★

حلبٌ ، وانت لدى هنانو ثورةً
هدرت ، وعند الجابريّ وفاءُ
يحيا بنوكِ حديثهم بقـــديمهم
فالكلُّ في حرمِ الخـــلودِ سواءُ
مافي محمّـــدِهم ولا بمسيحهم
كرهٌ ولا احنٌ ولا بغضـــاءُ
جمعوا الصفوف فما هناك مفرّقٌ
أمُّ المفرّقِ حائـــلٌ جزّاءُ
اني حملت اليك من نفحاتهم
ماليس تحمله لـــكِ الأنداءُ
اهوى هواكِ ، ولستُ انعش خافقي
إلاّ بما جادت بِهِ الصحراءُ
أمُّ العروبةِ ـ حسبها ما انجبت
من فاتحين ـــ رمالُكِ السمراءُ
اهوى قبابكِ ، كلـُّـنَّ منائرٌ
في الحالكات ، مشعَّـةٌ بيضاءُ
وعليك قد هبط الجمالُ فزوَّدت
كل العيون فتاتكِ الحسناءُ
واحبُّ معمتِـع الجنانِ وطيبها
للنازلين مروجـــكِ الخضراءُ
ولربما ادَّخرتْ بنيك ليومها
يافا ، فأنتِ وسيلةٌ ورجاءُ
طال السكوت : إلمَ تنفثُ سمّها
في القدسِ تلك الحيّة الرقطاءُ

★ ★ ★

شهباءُ كلُّ يَدٍ على غلوائهـــا
حملت اليـــكِ أذىً يدٌ شلاءُ
جلمت لكِ الدنيا بكلِّ فتونها
ومشت اليكِ كأنّها عـــذراءُ
اللاذقية يا اخيَّـــةُ رفرفٌ
خضلٌ وحبٌ خالصٌ وصفـاء
يهواكِ شاطئُها الجميلُ وريفها
والبحرُ والأمـواجُ والأنواء
انا من جبـالِ اللاذقية وافدٌ
وعلى فمي انشودةٌ وغنـــاء
حليت بذكرك .واستفاق بها الهوى
فكأن كلّ حروفِهـــا لألاء
وكأن علوة في ربوعِكِ اومأت
للبحتري ، فساقـــه الأغراء
اعطيتنيه هوى يرفُّ خوافياً
من معطيـاتِكِ يجمُلُ الأعطـاء
يا جنـة الشعراءِ في لهب المنى
لِمَ لا يغردُ بأُسمك الشعراء

في ١٦-١-١٩٦٣ احمد علي حسن

(١) القيت في نادي شباب العروبة في حلب

النقد في الفن التشكيلي

* بقلم: غازي الخالدي

من حين لآخر تطالعنا بعض الصحف والمجـلات السورية بخواطر ومقالات واحاديث حـول المعارض والنشاط الفني التشكيلي في البلاد بعناوين عريضـة تحمل شعارات النقد والنقاد ، ويقرأ الناس مثل هذه الخواطر على أنهـا قيـم علميـة مسلم بهـا ، فترى الاصطلاحات الطريفةيتداولونهابجهل فاضحويصنفون الفن والفنانين تصنيفات لا تمت الى واقعهـم الفني بصلة ويحاول بعضهم أن يلبسها الاسماء والكلمات وبعض التعاريف الفنية النقدية المعروفة الذائعة لباس الخبرة والاجتهاد الشخصي ويرفع البعض الآخر هذا الفنان .. ويهاجم ذاك لانه لم يفعل كذا .. ولم يلون كذا .. ولم يرسم كذا !

وتسمع من رواد المعارض أيضا تعابير وملاحظات وتعاريف .. واصطلاحات عن الفن .. يخيل الى من يسمعها أول وهلة أنها صحيحة ومناسبة للمقام .

والجمهور العادي .. لم يدرس الفن .. ولم يقرأ عنه .. الا ما يقع بين يديه من صحف ومجـلات .. ولا يعرف الفن الا من خلال المعارض .. وبعض الرواد والفنانين .. وهذا بالطبع لا يكفي اطلاقا لكي يعرف الفن على حقيقته ويتعرف الى الاسس الهامة في عملية نقد هذا الفن ومعرفة مدى أصالته من ضحالته ،وكثيرا ما تختلف على الجمهور القيم الفنية الصحيحة في الفن ويضيع في هذه الزحمة من الضوضاء والغوغائية التي لا تمت للفن بصلة . ان تلك المقالات والخواطر التي تنشر باسم النقد الفني ليس فيها الصفة العلميةالنقدية الموضوعية ، وان بعض الناس من رواد المعارض الذين يستعيرون بعض الملاحظات ويقذفونها اعتباطا أمـام أي عمل فني يصادفهم .

ان هاتين الظاهرتين في وطننا لهما أخطر على الفن وعلى الفنانين وعلى مستقبل الوعي الفني في البلاد من كسل الفنانين وعدم انتباههم المستمر لان عمليةالتوعية الفنية .. وزيادة النقد الموضوعي في البلاد .. معناه استمرار وتنشيط ودفع للحركة الفنية الى الامام .

أما كون الفنانكسولا او غيرمنتج .. فهذا يمكن معالجته عن طريق آخر . ولكن ذوق الجمهور ورأيه وأفكاره لا يمكن تغيرهـا بسهولة فيما لو فسـدت وتعفنت وتحجرت نتيجة تدخل هؤلاء المتطاولين على النقـد وعلى الفن ليشوهوا صورة الفن والفنان في مخيلة الجمهور الذي يلعب دورا هاما بالتعاطف مـع الفنان والهروب منه .

ونحن نعترف بصدق بأن السبب الاول الذيجعل هؤلاء المدعين يتطاولون على الفن والفنان هو قلـة النقاد المختصين بل وندرتهم ، وان استمرار هذهالحالة أمر يؤسف له حقا ، لان من شأنه أن يفقـد التوازن ويقطع حلقة الوصل بين الجمهور الفنان ، ودور الناقد يعتبر قياديا لا يقل أهمية عن دور الفنان فاذا كان هذا القائد انسانا غير مختص يكتب لمكاسب مادية أو من أجل شهرة مزيفة أو من أجل انتصارات شكلية بحتة

أو من أجل مجاملات شخصية مرتبطة بصداقته مع الفنان أو ذاك فان ذلك يعني أنه انسان يزيف الحقائق ويحاول أن يأخذ مكانا ليس له ولا يمكن طبعا الاستمرار ولا يستطيع أن يكذب على كل الناس كل وقت •

وأعتقد أن الموضوع لن يطول كثيرا لسببين اثنين: الاول أن افتتاح كلية الفنون الجميلة بدمشق وتخرج الدفعة تلو الدفعة من الفنانين أمر يشجع كثيرا ويزيد من عدد الفنانين العاملين على توعية الجماهير عامة ، والثاني أن الجمهور نفسه بدأ يتذوق ان لم نقل يعي مشكلة الفن والانسان وأثره في تطوير الحضارة •

ومن خلال المعارض التي أقيمت في سورية منذ أكثر من عشر سنوات الى الآن ونحن نلاحظ التطور في نوعية وكمية رواد المعارض ، حتى صار من البديهي أن يقتني الجمهور بعض الاعمال للفنانين العارضين ، وصارت حلقات المناقشة أمرا مفروغا منه في كل معرض، وبدأ الجمهور يسأل والفنان يجيب كأنما شعر جمهورنا بافتقاره الى الناقد الذي يعرفه بالفن والفنانين وهو حلقة الوصل بينه وبين الفنان وراح يطرح أسئلته مباشرة الى الفنان نفسه •

واذا أردنا أن نبحث عن السبب الاصلي وجدنا أن المسألة مرتبطة بأمرين اثنين أولهما ضحالة المستوى الفني عند الفنانين وعدم الجدية في أعمالهم •

ثانيا من الطبيعي أن ضحالة المستوى الفني ينتج عنه عدم وجود الناقد الموضوعي العلمي الذي يسمع رأيه ويؤخذ به •

ومن هنا نرى أن الحلقة متكاملة بين ضرورة رفع المستوى الفني وبين أهمية وجود الناقد الموضوعي وكلاهما يؤكد وجود الآخر ويدعمه ويطوره ، ومن نتائج غياب هذا الناقد أن اكتفى الفنان بالتصفيق العاطفي والاعجاب الذي لا حد له من الاصدقاء والاحباب ظانا نفسه أنه فنان العصر والاوان ،واصيب بالغرور ووقف من حيث بدأ •

اذن كيف نبحث عن الناقد وما هي مقوماته الفنية، ولنبدأ بتعريف سريع لانواع النقد ثم نخلص الى تحديد بعض صفات الناقد الاساسية •

النقد أنواع : التسجيلي وهو الذي يشير فيه الناقد الى مواضع القوة والضعف في العمل الفني كالريبورتاجات الصحفية وهي تفيد المبتدىء عندما يتلمس أول طريق الفن •

وهناك نقد من نوع آخر وهو الذي يهم الفنانين بالذات لاتصاله بعمليات التكتيك والبناء الفعلي للعمل الفني يسمى التكاملي ، فيتطرق الناقد الى التعليق على التكوين والاتزان الخطوط وعلاقتها بالسطوح والكتلة والملمس واللون والتعبير عن العمق • وهذا النوع من النقد يوجه الانظار الى العناصر البنائية في الفن وعلاقة العناصر الجزئية بالعناصر الكلية وهناك نوع ثالث من النقد هو النقد التاريخي وهذا النوع يحاول تقيم الاعمال الفنية باعتبارها أمثلة عن الاتجاهات العامة المصنفة في تاريخ الفن كما يتناول بالدراسة الظروف المتصلة بحياة الفنانين الخاصة •

وهناك أيضا نوع رابع وهو النقد التأثري (الانطباعي) وهو مرحلة متطورة من مراحل النقد التسجيلي ، والفرق بين النوعين أن النقد الانطباعي يعبر عن احساس الناقد ولا يكتفي بمجرد التسجيل بل يعبر عن أحاسيسه تعبيرا قويا الى الحد الذي يخلق من النقد عملا فنيا أدبيا جديدا •

وهناك نقد على أساس التصنيف المدرسي بحيث يأخذ الناقد اللوحة ويبحث لها عن مدرسة تشابهها ويصنفها ويعرفها من خلال تعريف وصفات تلك المدرسة •

وكذلك النقد (النماذجي) وهذا النوع من النقد يعتبر تعصبا واضحا لمدرسة دافيد وأنجر المشهورتين،

مدرسة التقليد الحرفي للطبيعة التي تعتمد على الرؤية البصرية (أرسم كما ترى لا كما تعرف) وكل لوحة لا توجد فيها الاسس الكلاسية التي عرفت عند دافيد وأنجر لا تعتبر عملا فنيا ناجحا بنظرهم •

ثم يوجد نقد (اخلاقي) تتدخل فيه عوامل الاخلاق الشخصية ، ومدى تعاطف الجمهور معه ، ويناقش العمل الفني بالتالي من حيث مدلوله الخلقي وأثره في حل مشاكل الخير والشر •

ثم النقد السيكولوجي الذي عرف في فرنسا على يد (سانت بوف) حيث تحلل اللوحات من خلال ترجمة حياة الفنان وربط العمل الفني بسلوكه الشخصي وطفولته وايدلوجيته وتطوره النفسي والخلقي والحضاري •

وفي جميع حالات النقد يهمنا أن تتوفر في الناقد بعض الشروط الهامة التالية :

١ ـ الثقافة العميقة التي تنجت عن اختصاص علمي وتجارب وخبرات وقراءات كثيرة اختص فيها الناقد اختصاصا كاملا •

٢ ـ الذوق الجميل الذي لا يمكن فصله عن الوعي والثقافة •

٣ ـ قدرة الاحساس بالجمال واضطلاعه بمبادىء فلسفة الجمال •

٤ ـ الموضوعية الكاملة والحكم النزيه بتجرد تام في تقييم الاعمال الفنية دون أي تعصب لمدرسة أو لاتجاه أو لمرحلة فنية في التاريخ •

انهناك فرقاشاسعا بين الناقد والفنان والفيلسوف • والفنان يحس الخبرة الجمالية بابتكار شيء جميل • بينما الناقد يتعرف الخبرة الجمالية من خلال الاعمال الفنية • أما الفيلسوف يبحث عن كنه العمل الفني وجوهره •

ولا بد لكي تكون الحلقة متكاملة من أن نوجد الثقة التامة بين الفنان والناقد بحيث لا يستخف أحدهما بالآخر ، ولعل أنجع أنواع النقد هو الذي يصدر عن الفنان نفسه عندما ينقض عملا فنيا لغيره فهو لا يتجنى عليه بحال من الاحوال ولا يناقشه من خلال اتجاهه ومدرسته ، بل يحدثه حديث الند للند وفي نقده الاحترام الكامل للعمل الذي ينقده وذلك لان الفنان خير من يقيم عمله ويعرف مدى صعوبته ، واهمية ممارسة التجربة الفنية شكلا وموضوعا وتنفيذا لانه هو نفسه يمارسها ويعرف حقيقتها •

ولعل أسوأ انواع النقد هو تدخل غير المختصين فهو الشر الذي بلي به الفن ومن النقاد من يلتزم مذاهب خاصة في نقده يدفعه الى الغاء حساسيته وعقله ويلزمه الزاما بالتحجر داخل نطاق هذا المذهب • وهذا النوع من النقد فيه نوع من التميز يسيء الى حد كبير الى تنوع الاتجاهات والمذاهب الفنية اساءة بالغة •

ومن النقاد من يخضعون خضوعا كاملا في نقدهم للصورة الجامدة التي تنفي كل انفعال طبيعي تلقائي بهذا العمل ويبدأون عملية حسابية يقيسون بها مدى انطباق العمل الذي أمامه على الصورة المحددة في أذهانهم وخطورة هذا الاتجاه ، انهم يقفون موقفا جامدا أمام التجديد بالفن •

ومن النقاد من يتكلم في كل الفنون دون تميز يعتمد على التذوق الشخصي ، ومن الطبيعي أن تتفاوت انفعالات كل من هؤلاء النقاد بالنسبة للعمل الواحد تفاوتا حيث يصل الى حد التناقض ويقع الفنان في حيرة وكذلك الجمهور •

وهناك نوع من النقاد نجد فيه الناقد الممتاز الذي يتمتع بالموضوعية والحس السليم والذوق والثقافة والخبرة الناتجة عن دراسة واختصاص ، ينقض العمل الفني بينه وبين الفنان ستار من عدم الثقة والنفور والاستعلاء ونحن بحاجة لهذا الناقد شريطة أن يكون

النشاط الثقافي والفني

* جان بول سارتر ألقى محاضرة عن « الفن الحديث » في جناح الجمهورية العربية السورية في معرض الفنون في الجزائر .

* الدكتور عفيف بهنسي عاد من باريس بعد أن نال أول دكتوراه في الفنون في الوطن العربي ، وموضوع الدكتوراه أثر الفهم العربي على الحضارة الغربية ، وكانت درجة الدكتوراه بدرجة شرف .

* محمد طالو استاذ مادة التصوير الفوتوغرافي في مركز الفنون التطبيقية ألقى محاضرة في المركز المذكور في الشهر المنصرم وعرض عدة أفلام توضيحية عن صناعة الافلام وطريقة التصوير من الناحيتين الفنية والعلمية .

* اختتم في الشهر المنصرم معرض الفنان نزار قطيفاني للطيور المحنطة في المركز الثقافي العربي في

بيننا وبينه الثقة والتعاون .

ونحن عندما نطالب بالحاح ارسال البعثات للخارج لدراسة النقد على أسس علمية موضوعية نؤكد اخلاصنا للفن وللنقد في هذا البلد ، خاصة وأن كلية الفنون الجميلة ستخرج هذا العام الدفعة الاولى من طلابها وطالباتها . ومن الضروري أن نربي في نفوس طلاب هذه الكلية وطلاب المراكز الفنية (تشكيلية وتطبيقية) احترام العمل الفني الجيد والجرأة في مناقشته وتحليله ومعرفة نقاط القوة والضعف فيه ، وتخطيط منهج علمي دقيق لتحليل الاعمال الفنية ، لان هذه القوافل الجديدة من حملة رسالة الفن هم الامل الحقيقي لانقاذ سمعة النقد والفن في البلاد .

وكاقتراح عملي يوجه الى كلية الفنون : لماذا لا تقام ندوات باشراف عميد الكلية وأساتذتها عندما يقام أي معرض للفنون التشكيلية بدمشق لمناقشة أعمال المعرض لدراسته دراسة وافية تفيد جميع الطلبة في الكلية وتعودهم على الروح الرياضية في النقد وتخلصهم من فوضى الاصطلاحات والاحكام الارتجالية السريعة على العمل الفني .

ان مثل هذه الندوات تقام في اكثر كليات الفنون في العالم ، ويعتمد عليها في تنمية التذوق النقدي للفن عند الطلاب وتحضيرهم للاختصاص ، منهم الى مجال النقد ، ومنهم الى مجال الانتاج الفني التشكيلي .

وبعد هذا سيكون من المؤكد أن الفنانين سيشعرون بجدية الفن ، وسيتحملون مسؤوليتهم كاملة عندما يعرضون انتاجهم سواء في معارض فردية أو عامة ، وستكون النتائج ايجابية وسريعة وبالتالي تتم أول خطوة عملية في تقريب الفنانين من بعضهم وتعارفهم بشكل أعمق واحتكاكهم ببعض من حيث الافكار والآراء حيث تتوضح بعض الاصطلاحات الغامضة والمفاهيم المعقدة التي طالما يرددونها ويقرؤون عنها في الصحف والمجلات والكتب .

دمشق — غازي الخالدي

أبي رمانة •

* مروان مسلماني يقيم في الشهر المقبل المعرض السادس لأعماله في فن التصوير الفوتوغرافي في قاعة الحلقة الاجتماعية لخريجي الشهادات العالية في أبي رمانة •

* سيقام معرض الخريف لهذا العام لأول مرة في قاعة الثقافة والفن في معرض دمشق الدولي القادم• وستكون جميع الاعمال الفنية من نحت وتصوير معروضة للبيع للجمهور •

* بدأت الدورة الجديدة لتعليم الفنون التشكيلية من نحت وتصوير وحفر في مركز الفنون التشكيلية بدمشق اعتبارا من أول الشهر المنصرم •

* افتتح وزير الثقافة والارشاد القومي المبنى الثاني الجديد التابع لمركز الفنون التطبيقية بدمشق يرافقه السيد الامين العام للوزارة يوم ٨في٧في١٩٦٤



واطلع على الفروع التالية : النقش على الخشب ويدرسه الاستاذ بشير الخياط ، الزخرفة وتدرسها السيدة هدى الايوبي ، الطباعة على الأقمشة ويدرسه الاستاذ يوسف الأيوبي ، الزجاج المعشق العربي ويدرسه الاستاذ ياسين الشوا وفرع الاعلان والغلاف ويدرسه مدير المركز الاستاذ غازي الخالدي ، وفرع التصوير ويدرسه الاستاذ محمد طالو وفرع التحف والأزياء الشعبية وتدرسه السيدة برش زمبركجي ، فرع الميدالية ويدرسه الاستاذ محمود حماد ، وفرع الرسم والتصميمات ويدرسه الاستاذ الياس زيات ، وفرع الخط العربي ويدرسه الاستاذ محمود نقشبندي •



* أقيم في دمشق في الشهر المنصرم ندوة ثقافية فنية تضمنت كلا من الاساتذة :

أسعد فضة « مجاز بالفنون المسرحية » — عبد الزاق العربي « مجاز بالموسيقى » • مجيد كركوتلي « مجاز بالفلسفة وعلم النفس » غازي الخالدي «مجاز بالفنون الجميلة » لؤي كيالي « مجاز بالفن التزييني (الديكور) » •

وقد نوقشت فيها مواضيع ثقافية وفنية مختلفة ونوقش فيها مقال نشر في مجلة الثقافة في العدد الماضي تحت عنوان الفن ومسؤولية الدولة للاستاذ غازي الخالدي ثم تطرق البحث عن تحديد مسؤولية الفنان ، ومفهوم الالتزام في الفن ، وثقافة الفنان ومسؤوليته الفكرية •